

كفاح جرار

الثائر تاكفاريناس





كفاح جرار

تاكفاريناس الثائر

رواية تاريخية





02 شارع محمد سليماني، حي حيرش إبراهيم، العلمة، سطيف
البريد الإلكتروني، elwatan.elyoum@gmail.com
الكتاب، تاكفاريناس الثائر
المؤلف، كفاح جرار
مصمم الغلاف، حكيم خالد
الصنف، أدب
الحجم، 11,5 × 19

ردمك، 9 - 58 - 387 - 9931 - 978
الإيداع القانوني، السداسي الثاني، 2017



مسؤول النشر : كمال قرور
مديرة السلسلة : نوّارة لحرش
الإشراف العام : ناصر معماش والخيّر شوار
مصلحة التسويق (النقال): 208 320 0770

الإهداء

إلى من يكتبون بعض فصول التاريخ، ليتكم تترفّعون بأقلامكم عن الكذب...

إلى ابنتي (فائزة كوثر) التي منحتني سعادة الصدق.

كفاح جرار

يوجد في روما ثلاثة تماثيل متوجة بالنصر
وتاكفاريناس لا زال حرا طليقا.

المؤرخ تاكيتوس

تمهيد

بعد موت الامبراطور أغسطس اعتلى عرش روما الامبراطور تيبريوس، وكان هذا عسكريا وفيلسوفا وصاحب دراية بالفلك والطب والموسيقى، وكان انطوائيا يفضل الاعتزال على حياة الملوك والأمراء، تميز بالقسوة والشدة والبطش، حتى لقبه أتباعه بالقيصر الرهيب، وقد شذ عن جميع الأباطرة في سلوكه مع جنده، فكان يأكل معهم ويشاطرهم الحديث، على عكس جميع النبلاء، الذين كانوا يرون في الجند مصدر وضاعة وقلة احترام.

تبنى تيبريوس نصيحة قادته العسكريين بضرورة تحصين مدن نوميديا من هجوم أهل الصحراء من قبائل الجيتول والكينثيين، فأصدر أوامر صارمة لتجديد خط الليمس وإعادة ترميم ما تهدم منه، كما أمر بتحصين جميع المدن الرومانية، حماية لما تسميه روما مصالحها ومناطق نفوذها، وهي في حقيقة الأمر أحد مصادر ثروة الرومان التي اغتصبوها عنوة من أصحابها الشرعيين، أما قبائل الصحراء فكانت تستقر في الجنوب الشرقي

لمدينة سيرتا ويمتد نفوذها لغاية بحر الظلمات أي المحيط الأطلسي، في حين كان الملك يوبا الثاني ملك موريطانيا صديقا ودودا للرومان، وضعيف الشخصية، أما الموريون فلم يكونوا راضين عن هذا التودد المبالغ فيه لروما.

كانت منطقة الشمال النوميدي تغلي كالمرجل، فكان على كل فلاح نوميدي أن تقديم ربع محصوله السنوي إلى خزينة المقاطعة، إضافة إلى أعمال السخرة، وكان سعداء الحظ هم أبناء العائلات الكبيرة والميسورة الذين سمح لهم بالانخراط في صفوف الجيش القيصري، فكانوا يتدرجون في المناصب ويتمتعون ببعض الامتيازات، التي تعد أدنى بكثير مما يتمتع به نفس الضابط إذا كان إيطالي الأصل، ولكنها كانت مقبولة لدى هؤلاء، وكان الجنود والضباط الأمازيغ يستخدمون ضد أبناء جلدتهم من النوميديين وليس في فتوحات الامبراطورية الرومانية.

تقع مدينة سيرتا العاصمة النوميدية على هضبة جبلية، مكنتها من السيطرة على جميع السهول المحيطة، كما إن جدرانها وأسوارها المنيعة كانت تقف حاجزا صلبا أمام أية قوات معادية، والحقيقة لم يكن في تلك الأرض ما يستدعي خشية الرومان، فقد سيطروا على جميع أراضي الناحية، وليس في المدينة أي خوف من خطر داخلي، خاصة أن معظم ساكنتها

هم من القادة الرومان والحرفيين والتجار، وليس في المدينة إلا بعض الضباط والجنود النوميديين الذين سمح لهم في البقاء، لتأمين حماية أسوارها وأبوابها ومزارعها الوارفة الغناء.

وحتى هؤلاء لم يكن يسمح لهم بالسيطرة واتخاذ القرار، بل كانوا يعملون تحت إمرة الرومان من قادة الحرس القيصري، وكانت المدينة موزعة على جبلين عظيمين يفصل بينهما واد سحيق كثير المياه، وتحيط بالوادي بساتين الحمضيات والفاكهة، والكروم الخصبة جيدة النوعية ونبيذها هو المفضل عند الأباطرة، وكذا مزارع خضروات يعمل فيها فلاحون نوميديون، ولم يكن يسمح لهم في البقاء بعد مغيب الشمس، وإنما كانوا ينقلون إلى قرى قريبة، تقع في سفح الجبل الشرقي، إضافة إلى العبيد الذين كانوا يتولون أمر الخدمة.

من المفارقات التاريخية أن تميز عهد الامبراطور **الانطوائي بثورة تاكفاريناس التي انطلقت في سنة 17م وتم القضاء على قائدها في 24 م، فلم تعرف نوميديا في** عهده الهدوء أبدا.

❁ ❁ ❁

رسول القيصر

ترسل الأقدار أحيانا إشاراتٍ وعلامات لا يتمكن من التقاطها إلا العقلاء، ولا يعيها ويفهمها إلا اللماحون الذين يستخدمون عقولهم أكثر بكثير مما يستعملون ألسنتهم، وفي العقد الأول لما قبل الميلاد، كان رسول النصرانية عيسى بن مريم عليهما السلام، يحارب المرابين وتجار الدين من أحبار يهود، ومن حالفهم من الرومان المرتشين، وفي الشمال الإفريقي، وتحديدا فيما عرف لاحقا بالمغرب الأوسط، وكان يومها مملكة نوميديا الشرقية ومعها نوميديا الرومانية كان أحد فرسان الأمازيغ يقاتل نفس الأعداء، من المرابين والمرتشين الرومان، فهل تزامنت الأحداث صدفة أم جرى الترتيب لها بيد القدر، لتأسيس علاقة يفهمها ويعيها العقلاء اللماحون؟

استدعى تيبريوس امبراطور الرومان أحد قادته الذين يثق بشدتهم وحزمهم وهو القائد تيبيوس، وطلب منه التوجه من فوره إلى العاصمة النوميدية سيرتا، فأبدى القائد الروماني غبطته لتولي المهمة، وقال: يشرفني

ذلك يا مولاي، وهل من نصيحة تحملني إياها؟

قال الامبراطور: نعم سوف تأخذ رسالتنا هذه إلى حاكمنا هناك لوكيوس أبرونيوس وقد شرحت له فيها ما يتوجب عليه عمله.

قال القائد وهو يشد قامته باحترام: أمرك يا مولاي، ثم أشار القيصر إلى قائده أن يقترب منه، فلما دنا من كرسي القيصر همس في أذنه: قل لحاكمنا إن خراج إفريقية لا يعادل حجم خراج مزرعتي، فهل تبخر الخير، أو بات يشفق على البرابرة أكثر من حبه لمليكه؟ ثم أذن له بالانصراف، فانحنى القائد تحية لإمبراطوره وذهب مسرعا بالكتاب والوصية.

يقع قصر البروقنصل في سيرتا، وهو لقب الحاكم العام، على هضبة تشرف على النهر، ولا يفصلها عن الضفة الأخرى سوى بضعة عشرات من الأمتار، يربط بين الضفتين جسر خشبي وآخر مصنوع من القنب المتين، وتحيط بالقصر مزارع الخوخ والبرقوق والمشمش، وفيها الرمان والعنب وأصناف كثيرة من الفاكهة، كما أعد حديقة خاصة لزراعة الورود التي كان يعشقها ويجلبها من روما مع التجار والبحارة، وكان الحاكم يفضل الجلوس فوق أريكة أعدت خصيصا فوق الجسر بحيث يشرف على معظم أرجاء المنطقة، كثيرا ما سمعه ضباطه يردد: كم هي جميلة هذه البلاد،

وكم هي ساحرة، لو أن الآلهة حبتنا ببلاد مثلها لوفرت علينا عناء القتال والسفر.

سألت ابنته المدللة بيانكا ذات يوم، لما سمعته يردد جملته المعتادة: أليست هذه بلادنا يا أبي؟

أربكه السؤال، ابتعد عنها قليلا وهو يتمشى فوق الجسر، وكان يتبعه قائد جنده بيتروس، فسمعه يهمس: ليتها كانت، ليتها كانت.

نظر الحاكم إلى قائد جنده، فلمح في عينيه سؤالا يهم في البوح به، فاستحثه قائلا: ماذا لديك يا بيتروس، قل أرى في عينيك كلاما؟

قال: أراك قلقا يا مولاي، هل تأمر بشيء؟

قال الحاكم لوكيوس: أتعلم كلما نظرت في وجوه أولئك البربر وتفرست في أعينهم، أراهم يختزنون كما هائلا من الحقد والكراهية لنا، ثم علا صوته، لماذا يكره هؤلاء الهمج روما، لقد حملنا إليهم الحضارة والمدنية والمعرفة، لقد علمناهم كيف يزرعون وكيف يصنعون وكيف يأكلون أيضا، لكنهم يكرهوننا..تلك هي الحقيقة أيها العزيز بيتروس.

ثم قال صارخا مهتاجا: نحن أبناء روما العظيمة، وهم أبناء..أبناء..لست أدري حقا هم أبناء من؟

في تلك اللحظة، جاء أحد الحراس مسرعا، فوقف

على أول الجسر ثم قال: يا مولاي، لقد وصل رسول مولانا الامبراطور العظيم.

حاول الحاكم السيطرة على مشاعره، مسح فمه بمنديل كان بيده، ثم انطلق لاستقبال الرسول، قطع المسافة الفاصلة بين الجسر وحدائق القصر بسرعة خاطفة، تلك خفة الخائف، وعندما اقترب من درج القصر أصلح من هيئته، ثم صعد باتجاه الردهة الكبيرة، متوجها إلى مقعد الحكم في الصالة الرئيسية.

وصل رسول الامبراطور تيبيوس إلى إفريقية الشمالية، فلم يتوقف للاستراحة في ميناء إجيجلي، بل استقل عربة تجرها ثمانية خيول بيضاء، وتوجه نحو سرتا رفقة قائدين من الحرس الامبراطوري، عليهما كامل أناقة الضباط الرومان، بجزمهما طويلة العنق ذات اللون البني الداكن، ويلبسان التنانير القصيرة الحمراء المخططة، ويتلفعان بعباءات حمراء، وقد وضع كل واحد منهما رتبته العسكرية على كتفه الأيسر، وكانا يحملان أسيافا قصيرة غليظة، ذات غمد ذهبي لماع، ولما وصلت العربة إلى مدخل القصر استقبله الحراس بتحية عسكرية تليق برسول الامبراطور، دخل الوفد وكان معهم صندوقا كبيرا من الخشب المرصع بالفضة، التقى رسول القيصر مواجهة بفارس روماني شاذ الهيئة، لم ينحن الفارس للرسول كما جرت العادة، فأغضب ذلك، وشعر بإهانة تشبه بصفعة طفل صغير على شاب

يافع، رمقه بنظرات حادة غاضبة، ثم أكمل سيره نحو الردهة الكبيرة، فلما أصبح بين يدي الحاكم، استقبله بالعناق، وشد أحدهما بكلتا يديه على ذراع صاحبه، وصافح الضابطين المصاحبين له، ثم أجلسه إلى جانبه، حيا الحاكم ضيوفه بلهجة مضطربة من فرط الانفعال الذي حاول إخفاءه: أرجو ألا تكون قد وجدت مشقة في الطريق إلينا.

قال الرسول تيبيوس: لقد سار كل شيء على ما يرام يا سيدي، فأخذ الحاكم يسأله عن الامبراطور وأحوال روما التي اشتاقها كثيرا، وأمر الخدم بجلب الشراب للضيوف، تناول رسول القيصر كأس الشراب ثم أمر بالصندوق أن يفتح فأخرج منه وساما منحه للحاكم العام باسم الامبراطور تيبريوس، ثم أخرج كتابا جلديا مختوما بالشمع الأحمر وسلمه للحاكم.

أخذ الحاكم بقراءة الكتاب، وكان يقرأ بتمعن وهو يهز رأسه علامة على الطاعة والموافقة، لما انتهى من القراءة قال: السمع والطاعة لمولانا الامبراطور، ثم أعطى أوامره للحاجب كي يقوم بإعداد جناح الضيوف، انتهز الرسول انشغال الرجال بالحديث والشراب، فاقترب من أذن الحاكم وقال، أخشى أيها العزيز أن يكون في قلب الامبراطور شيئا من ناحيتك، تلون وجه الحاكم واصطبغ بحمرة شديدة، فتحول من الأبيض المشوب بالحمرة إلى أحمر كالنبيذ، ثم تحول نحو

الصفرة.. ولم يجد ما يقول سوى أن يرتشف بعضا من النبيذ، وهو يبدي جهدا عظيما ليتمالك نفسه ويخفي ما يعصف به من مشاعر، تابع الرسول، لقد أوصاني مولانا القيصر العظيم أن أخبرك بأن خراج إفريقية قد نقص كثيرا، وأنها لم تعد تفي بحاجات روما، فبلع الحاكم ريقه، ثم قال بصوت مرتعش، الأمر لمولانا الامبراطور، لكنك تعلم أيها المبعوث المبجل كم كلفنا أمر القضاء على ثورات هؤلاء البربر، ثم أمسك الرسول بيد الحاكم وهو يحاول تهدئة انفعالاته، وقال، لا داعي للقلق أيها الحاكم العزيز، فقط هي ملاحظة أمرني مولانا الامبراطور بنقلها إليك، وهو راض عنك كل الرضى، رغم ما يحاك في مجلس الشيوخ من دسائس، هم يجيدون التآمر كما تعلم، فقد كنت واحدا منهم، وضحك الرجلان لهذه الملاحظة، لكن الحاكم أدرك أن لهذا الرسول منزلة عظيمة عند الامبراطور.

فتمادى في كيل المديح والثناء، ولم ينقذه إلا صوت رئيس الخدم طالبا منهم التفضل بتناول الطعام.

توجه الحاكم مع ضيوفه إلى غرفة الطعام وأثناء سيرهما سأل رسول القيصر سيد القصر عن هوية الضابط الروماني الذي يقف في مدخل القصر، فلم يتمكن الحاكم من معرفته وفرك رأسه ثم قال: ربما تقصد الضابط إيليوس إنه من أشد المخلصين لي.

فقال الرسول: إن كان هو فأشك تماما في إخلاصه..

لاحظ اهتماما خاصا في عيني الحاكم، فتابع بهمس، سوف أخبرك فيما بعد، دعه ألا يفسد علينا متعة الطعام.

جلس الحاكم على رأس الطاولة وكان على يمينه رسول القيصر، وعلى مشأمته جلس الضابطان المرافقان، ثم انضمت إليهم زوجة الحاكم بيلاروزا وبناته الثلاث، ثم جاء الخدم يحملون الطعام فانشغل الحاكم بنهش لحم الضأن المشوي، وكانت بناته يلهون مع الضباط بينما كان رسول القيصر يأكل متمهلا وهو يسترق النظر إلى زوجة الحاكم، كانت امرأة رومانية رائعة الجمال رغم تجاوزها الخمسين، وكانت تلبس فستانا حريريا أزرق، شدت خصرها بزنار من الفضة المرصع بالذهب، وقد برز نهداها بشكل ملحوظ، فلاحظت نظرات الرسول الشغوفة إليها فتعمدت إثارته، وكان السقاة يملأون الأقداح كلما انتهى أصحابها من الشرب، فلعبت الخمرة في رؤوس البنات والضابطين، ثم استأذنت زوجة الحاكم في الانصراف، وهمست في أذن رسول القيصر بأنها ستراه لاحقا.

سار الحاكم والرسول في حديقة القصر، وكانا يحملان كأسين من الشراب، فلمح رسول القيصر الضابط صاحب الشعر الطويل، والوجه القوي الملامح ذي العينين الثاقبتين، وكان يقف بالقرب من باب الحديقة، فقال تيبيوس: ذلك هو الضابط الذي سألتك

عنه.

قال الحاكم: اه تقصد تاكفاريناس، إنه متمرد بطبعه هذا الرجل، ورغم عمله في الجيش الروماني إلا أنه بربري بدرجة امتياز ويتباهى ببربريته.

ثم ضرب الحاكم على يد الرسول بلطف، وقال ممازحا: هل سبق لك أن سمعت برجل يتباهى ويتفاخر بنفسه لكونه بربريا، إنه هذا الصف ضابط تاكفاريناس.

ثم نادى الحاكم على الضابط الواقف عند باب الحديقة الداخلي: هيه أنت تاكفاريناس هلم إلي. فجاء الضابط بخطوات سريعة وثابتة، حتى وقف قبالة الحاكم فأدى التحية بانحناءة من رأسه، قال الحاكم: يبدو أنك تركت انطباعا سيئا في نفس ضيفنا العزيز تيبيوس رسول القيصر.

فأجاب الضابط بكلمات خرجت غضبا من بين شفاهه: لا أذكر أني رأيته سابقا يا مولاي.

طلب منه الحاكم أن يقبل يد الرسول قائلا: قبل كتف الرسول العزيز فقد تنعم ذات يوم بزيارة روما، وسوف تتمنى ساعتها أن لو قبلت ما هو أكثر من اليد، ثم علت ضحكات الحاكم، وأخذ يقهقه منتشيا من تأثير الشراب.

امتعض الضابط الشاب لما قيل، وشعر بزلزال

يجتاحه ويهزه من الداخل، فاقترب قليلا من كتف الرسول تيبيوس، فتراجع هذا إلى الوراء قائلا بقرف، امسح شفتيك أولا قبل أن تلمس كتفي.

تعالت ضحكات الحاكم للجملة الأخيرة التي قالها رسول القيصر، بينما أحس الصف ضابط تاكفاريناس بأنفاسه تنقبض، وبضيق في صدره، فامتقع لونه، وأصبح وجهه داكنا واضيقت عيناه، لقد سمع إهانة لو سمعها في غير هذا المكان، لسالت لها الدماء، بلع الإهانة على مضض، رجع خطوة إلى الوراء وانحنى برأسه وجذعه وانصرف مسرعا..أخذ يلعن كل من كان سببا في انخراطه بالجيش الروماني.

كان الصف ضابط تاكفاريناس، صاحب الشعر الطويل المضفور والذقن المدببة، ببشرته الحنطية المائلة إلى السمرة، ابن عائلة نوميدية ثرية ذات نسب، ولأنه ماسيلي أصيل، كان الرومان يتغاضون عن عنجهيته وصلفه، فتلك قبيلة أنجبت الملوك من ماسينسا إلى يوغرطة عدو روما اللدود، وكان كلما صرح بأنه ابن الملوك، يسكتون على مضض، وهم يعلمون أنه محق، فرغم رومانيتهم لم يصلوا إلى مرتبة الأمراء حتى يكونوا من سلالة الملوك.

حقا الرومان يحترمون أعداءهم ويعترفون بقدرهم، وفق ما تمليه التقاليد العسكرية للأستقراطية الرومانية،

ولكن بعد الذي جرى مساء اليوم، شعر تاكفاريناس بأن شيئا عظيما تحطم في قلبه، لم يخف رغبته وشوقه لزيارة روما، لكن روما انكسرت وللأبد في قلب هذا الضابط ابن الثماني وعشرين عاما، فلما غادر القصر ركب جواده تيفان أي الخير، وانطلق مسرعا نحو قصر عائلته، الواقع في إحدى الضياع المحيطة بمدينة سيرتا، وكان أثناء انطلاقته يفكر في تاريخ أسود عرفته المنطقة بأكملها، وأخرجه من دوامة التفكير تلك عندما ارتطمت بعض أغصان الأشجار برأسه، فأخذت الأوراق تصطفق على وجهه وجبهته كأنها صفعات صغيرة، انتبه من تفكير سوداوي يشبه الغيبوبة، فوجد نفسه أمام منزله، وسأل نفسه وهو يترجل عن حصانه، ولكن هل علي أنا واجب محاربة روما أو دحر روما؟

علقت الكلمتان الأخيرتان برأسه فأخذ يرددهما وهو يهم بدخول المنزل، دحر روما.. دحر روما.

لم يجد تاكفاريناس لسؤاله إجابة، ولاحقا وجده سؤالا غير ذي معنى، لكن الأقدار كانت تعده رغم أنفه لمنازلة الرومان، دخل المنزل مسرعا وكأنه يبحث عن شيء بعينه، تبعته زوجته، خمنت ماسيليا أن زوجها الممتقع ليس بخير، هي امرأة أمازيغية نبيلة المحتد، طويلة القوام ممتلئة الجسم بيضاء البشرة، ذات عينين عسليتين واسعتين، وقد زادهما الكحل بهاء وتألقا، فاحتضنت زوجها من الخلف وهي تقول: هل لي

بمساعدتك، أيها المشاغب الحبيب؟ هز رأسه موافقا، وكأنه يبحث عن شيء حقا، ثم قال، نعم علي أن أدحر روما.

ضحكت من سذاجة إجابته وعفويتها، ثم ضحكت بسعادة حتى أضحكت زوجها الغاضب، وكادت أن تقع من فرط الضحك، وسالت الدموع من عينيها مختلطة بالكحل الأسود، فأخذ تاكفاريناس يراقب زوجته، ويضحك من منظرها الكوميدي، وهي تمسح عينيها، فاصطبغ وجهها بلون أسود كأنها دهنت بالقار.

صمتا فجأة، قالت الناس يولدون أطفالا أما أنت يا فارسي فقد ولدت رجلا، مسحت وجهها بعفوية، اكتشفت ما صنعه بها الكحل، هرعت نحو البئر، أما هو فاستلقى على سرير خشبي، لقد ولدت رجلا.. أعجبته الجملة، أخذ يحملق في سقف الغرفة وكأنه ينظر إلى نجوم سماوية يحاول حصر عددها، فأخذ يحصي عدد العارضات الخشبية التي تحمل سقف الغرفة، وكأنه يراها لأول مرة ثم غط في نوم عميق.

❁ ❁ ❁

لوكيوس أبرونيوس

وقع ابنه الأكبر تافاتيس في البئر، ثم حاول عمه تاسفاوت إخراجه فسقط وراءه، فاندفع هو بكل قوة نحو البئر وألقى بنفسه وراء أحبته محاولا إنقاذهم، وبالفعل أمسك بالفتى ومعه عمه، وعندما خرج من البئر ناشدا نسمة هواء منعشة، شاهد عمه حاديم يحاول إخراج سهم معدني مدبب وقع في نحره، فاندفع لمساعدته، لكنه شعر بقبضة وقعت على كتفه وأخذت تجذبه نحو البئر بقوة وشدة، فأخذ يئن بصوت مخنوق، ثم استيقظ من النوم منتفضا كمن نزلت على رأسه صاعقة صيفية، جاءت زوجته على صرخته، وقد استبد بها الرعب، أسرعت إليه بجرعة ماء فشرب وهو يلهث، أخذت تمسح بمنديلها الأزرق قطرات العرق الباردة التي نبتت على جبهته، ولما هدأ سألته، قص عليها حلمه، وبعد دقائق صمت، سألت: متى شاهدت عمك حاديم؟

أخبرها مذ غادرهم إلى مدينة ميلاف، ميلة، لم يجتمع به، ولم يخف شوقه لرؤيته، ولكن ما العلاقة بين سفره وهذا الحلم الكابوس؟

قالت لزوجها الهلع، غدا صباحا سوف أذهب إلى الكاهنة تاكسيلت، فلا تقلق يا عزيزي والآن عد إلى النوم ولكن ليس على هذا السرير، وإنما بجوار زوجتك، ثم تابعت بدلال، وأعدك بألا ينغص عليك نومك أي حلم مزعج.

عندما غادر تاكفاريناس قصر أبرونيوس، شعر هذا بالحنق رغم نشوة الشراب، فأرسل وراء قائد حرسه، وجده يذرع الغرفة مشيا ثم يمسد لحيته.

سأل الحاكم: أخبرني أيها القائد متى التحق بقصرنا تاكفاريناس؟

- إنه هنا قبل مجيئك يا مولاي، منذ أيام الحاكم السابق، ولكنه كان يشرف على حراسة المزارع، ورأينا أن نلحقه بحراس القصر بعدما لمسنا حرصه وإخلاصه.

أمسك الحاكم بيده اليسرى ستائر النافذة القرمزية التي كانت تتطاير بفعل نسمات الصيف اللطيفة، وأخذ يراقب مغيب الشمس وسقوطها بعيدا في بحر مدلهم الإخضرار، ثم قال وهو يأخذ نفسا عميقا: لا أرغب برؤيته في القصر.

أشار له أن يمكنه الذهاب، ثم قال مسرعا: تمهل.. تمهل قليلا أيها العزيز بيتروس، اقترب منه: اعذرني لغضبي، ولكن قل لي ألا يصلح هذا البربري للعمل في الإسطبل كسائس للخيل مثلا؟ صمت القائد قليلا

ثم قال وهو يتنحنح: لعلك تعرف منزلة عائلته ومدى سطوتها، ولكن هل ارتكب ما يستحق العقاب والزجر؟

- لو أنك أجدت ترويضه لما وقعنا في هذا الحرج، على أي حال أريد أن أراه بمجرد حضوره، عاد قائد الحرس أدراجه وهو يفكر في وسيلة يتقي بها غضب الحاكم وغضب عائلة تاكفاريناس أيضا، كم من الأموال أغدقها عليه تاكفاريناس، ثم إنه يعتبره صديقه الحميم وعراب زواجه، فلولاه وعائلته لما تمكن من الظفر بحبيبته تاغارا.

في مكان آخر من القصر، استيقظ رسول القيصر على لمسات ناعمة تداعب خده، فتح عيناه ليجد زوجة الحاكم بيلاروزا في أجمل وأبهى صورة، فقد تزينت وتعطرت، ولبست ما يظهر ويفتن أكثر مما يخفي.

قال رسول القيصر وهو يفرك عينه: سيدتي هل أنت ملكة الجن أو أن القمر هبط من السماء إلى جانبي، لا شك أن فينوس عرفت من ترسل إلي.

قالت بدلال: لقد جئتك ببعض الفاكهة والشراب المنعش، وأرجو ألا أكون قد أزعجتك.

قال وهو يقبل يدها: بل أتمنى أن تزعجيني دوما.

-مابك تحملق في صدري، ضحكت.. إن نهداي كالعذراء، أحرص عليهما كثيرا.. ثم ألقت بنفسها

بين ذراعيه، بينما كانت شفاههما تمارس طقسا من الحب الدنس، لم تكن العجوز الجميلة متهتكة، وإنما اعتقدت أن زوجها في مأزق فأرادت مساعدته، وهي تعلم أنه لو شاهد ضيفه بين فخذي زوجته، فسوف يبتسم قائلا: يا لك من فاتنة يا روزا يمكنك هزيمة دزينة من المستشارين برعشات نهديك.

ابنة الحاكم الصغيرة المدللة بيانكا بدورها تعشق الرجال كبار السن، فقد رأت في الحاكم الشخصية التي تحبها وتشتهيها، وقالت في نفسها، إنه يصلح لي أبا وعشيقا ولم لا زوجا مستقبليا، فقررت أن تتسلل إلى غرفته ليلا، وهي على ثقة أنه لا يستطيع مقاومة جمالها وشبابها، وحدثت نفسها قائلة: لاحظت لهفته للحديث معي.. لا شك أني فتنته، جاءت هي الأخرى إلى غرفة تيبيوس، فتحت الباب بهدوء وخفة، ثم اندفعت نحو السرير دون أن تنظر لما يجري فوقه.

كانت المفاجأة ثقيلة وقاسية على الفتاة وأمها معا، أما رسول القيصر فقام كأن الأمر لا يعنيه، شهقت الفتاة وأغمي عليها، أما وانتفضت الأم وصرخت وذهبت في غيبوبة، قام تيبيوس وأخذ ينظر إلى المرأتين بدهشة واضطراب، ثم تحامل على نفسه وذهب إلى الشرفة.

كانت عين أحدهم تراقب ما يجري ويحدث في القصر ليلا، فقد بات الحاكم ليلته ساهرا يطالع ويراجع

سجلاته وحساباته، ويناقش مع مساعده تافروس ما يجب عمله لإرضاء القيصر، وهذا ما دفع برئيس خدم القصر سيارس وهو نوميدي من أصدقاء تاكفاريناس، للبقاء ساهرا حتى يأذن له الحاكم في النوم، وكان يتنقل أثناءها بين الردهة الرئيسية والمكتب والمطبخ، ولم يغب عن عينه ما حدث في الطابق العلوي من القصر.

جذبت الأم ابنتها وضمتها إلى صدرها، ثم قالت: أشفق عليك يا ابنتي من هؤلاء الرجال ذوي الأنياب الزرقاء، ألم تجدي لك خيرا من هذا العجوز يؤنسك ويدفئ سريرك، ليس في مثل هؤلاء أي خير يا بنيتي.

انتفضت الصغيرة وأبعدت رأسها عن صدر أمها وقالت بصوت كالبكاء: ألا ينطبق نفس الأمر عليك، على الأقل لديك من يساكنك فلم تشفقين علي مما تقومين أنت به.

استسلمت المرأة لكلام ابنتها، ثم قالت بدهاء ووقاحة: نحن الكبار نتشابه، أما أنت فلا، أنيابنا زرقاء يا ابنتي، ولا أقول ذلك لكي أوغر صدرك علي، أو حتى تكرهيني، وإنما هي الحقيقة فمثلي بإمكانها أن تضاجع عدة رجال من هؤلاء دفعة واحدة بمن فيهم والدك، فلا يدهشك هذا الاكتشاف، وعندما تبلغين عمري وتنالين ما لدي خبرة ستقولين ساعتها، كم كانت الراحلة والدتي محقة.

الرحلة البائسة

لبس صف الضابط تاكفاريناس لباسه العسكري التقليدي كاملا، ولم يكن لباسا عسكريا رومانيا، وإنما هو اللباس التقليدي للفرسان الأمازيغ، ولم يكن في زيه أي شيء روماني سوى الرتبة والحذاء، وتعمد أن يحمل سيفه ذي القبضة الذهبية، وكان قد ورث هذا السيف عن أجداده الأوائل، ثم وضع خنجره النحاسي اللامع في حزامه الجلدي المطعم بالفضة، وكان يضع على ظهره عباءة من الحرير الأخضر.

عند بوابة القصر أخبره الحرس أن الحاكم في انتظاره، لكنه لم يغير عادته اليومية، فقد ذهب إلى صديقه رئيس الخدم لاحتساء كوب النعناع الساخن.

كانت غرفة المطبخ واسعة عظيمة، ذات عدة أبواب كل باب فيها يوصل إلى غرفة مختلفة، فالباب الخلفي يفتح على مستودع المؤنة، أما الباب القبلي فيؤدي إلى الردهة الخارجية ومنها إلى قاعة الطعام الرئيسية، والباب الواقع في الوسط بين الفرن وخزانة اللحم فيؤدي إلى فناء المطبخ الداخلي، وقد اعتاد تاكفاريناس

الدخول من هذا الباب.

تناول كرسيا وجلس بكامل هيئته، فخرجت صيحة إعجاب من فم رئيس الخدم ثم قال: هل بعث الملك ماسينيسا من جديد؟ أما الطباخ صاحب الشوارب العظيمة يوبوس فأطلق صفرة إعجاب تشبه صوت الشحرور.

قال رئيس الخدم سيارس: أقسم أنك أبهى من الامبراطور ولو رآك شيوخ روما لاختاروك قيصرا عليهم.

ابتسم برقة وخجل: ليس إلى هذه الدرجة أيها العزيز، ولكننا لا نقل عن ملوك روما أصالة وشجاعة.

تناول كوب النعناع من يد صديقه، وأخذا يرتشفان بهدوء، ثم قال العجوز: سوف أخبرك بشيء فاتك ليلة أمس.

-ليس في هذا المكان ما يغري بالمعرفة.

-بل عليك أن تعرف، اقترب مني قليلا أيها الملك الشاب، أعجب تاكفاريناس بالصفة الجديدة قرب رأسه من صديقه، الذي قص عليه ما جرى بين رسول القيصر وزوجة الحاكم بيلاروزا وابنته بيانكا.

أطلق ضحكة مدوية، ثم قال وهو يهب واقفا: كم هو محظوظ هذا الروماني الأحمر، كان يشير إلى بقع

حمراء في خد رسول القصر.

شكر صديقه وانطلق بخفة ونشاط من الباب المؤدي للردهة، ومنها إلى مكتب الحاكم، فسمح له الحاجب بالدخول، وكان هذا يتهامس مع ضيفه، فاقترب بثبات وبطء وألقى تحية الجندية باحترام، وما أن شاهده الحاكم بهيئته الجديدة، حتى قام من مقعده وهو يقول: مرحى مرحى بفارسنا الجديد.. أرى أنك سوف تفرض على جنودنا لباسك الخاص أيها الملك النوميدي.

شعر رسول القيصر بغصة، لما اعتبره حماقة كبيرة من لوكيوس، ثم تنحنح وسعل لكي يوقظ الحاكم من نشوته الثرثرة، فتابع قائلا: يليق بك هذا اللباس الملكي الفاخر، ولكن ليس في قصري أيها الصف ضابط تاكفاريناس.

كان الحاكم خبيثا وماكرا، فهو تارة يكيل المدح ثم يوجه لكماته إلى الفم مباشرة، لقد ذم ومدح في نفس الوقت، رأى أن يلحقه بسجن المقاطعة لقيادة الحرس، كان معظم السجناء هناك من النوميديين، وجرائمهم عدم دفع الخراج لخزينة المقاطعة، ومنهم الذي أعلن غضبه ونقمته من قوانين روما المجحفة، ومنهم من اتهم بسرقة رب عمله، وكانت سرقته بعض القمح أو الخضروات، وربما سرق عدة بيضات ليطعم أطفاله، وليس أفضل من تاكفاريناس للتعامل مع مثل

هؤلاء؛ لكن لا، هذا المتمرد يصلح لمهمة أفضل. سأل لوكيوس، هل ترغب في زيارة روما أيها الصف ضابط؟

-يشرفني ويسعدني ذلك يا مولاي.

-عليك أن تثبت ولاءك وإخلاصك لمولانا الامبراطور العظيم، فهل تجد في نفسك ما يكفي من ذلك الولاء؟

التفت إلى ضيفه الرسول وقال: ما قولك أيها العزيز تيبيوس المبجل؟

هز رأسه موافقا، لابد أن الحاكم العجوز يدبر أمرا خطيرا، همس، ثم قال: هم جندك وأنت أفضل من يحكم عليهم.

أما تاكفاريناس فقال: الأمر لكم يا مولاي.

قال الحاكم: إذن لقد قررنا تعيينك رئيسا لمفرزة الحرس الإمبراطوري، المكلفة بجمع الغلال والمحاصيل والأموال؛ سوف نبدأ بتبليط وترميم المدن الحدودية، أرنا مهارتك أمام القبائل الصحراوية المخربة، وعليك أنت أيها الصف ضابط أن تتولى جزءا من مسؤولية العمل، ونحن نعلم أن لك كلمة مسموعة بين الفلاحين، وما عليك إلا أن تثبت إخلاصك لروما العظيمة وللقيصر العظيم.

أمر الحاجب باستدعاء النائب المستشار تافروس،

وطلب من تاكفاريناس أن يجلس بانتظار حضوره.

انشغل الحاكم في الحديث مع ضيفه، وأخذ تاكفاريناس يجول ببصره في أرجاء القاعة الكبيرة، فلم يكن مسموحا له قبل ذلك أن يدخلها، فشاهد تمثالا كبيرا على باب القاعة يمثل رمزا لوثنية روما، وإلى جانبه تمثالا آخر لنسر عظيم، وكانت الأرض مغطاة بسجاد قرمزي بزخرفات شرقية، وإلى اليمين وقف تمثال القيصر كما علق الحاكم قفصا كبيرا فيه ببغاء رائع الجمال، وكانت وراءه لوحة كبيرة تمثل طاووسا عظيما، فانشغل تاكفاريناس بمتابعة خطوط اللوحة التي أعجبته وبهرته كثيرا.

ثم ذهب تفكيره إلى منصبه الجديد، وتساءل: هل هي مرتبة جديدة بامتياز مثير أم هي عقوبة سلطها على رقبتي دون أن أدري؟

بينما هو منشغل في التفكير، كان رسول القيصر يراقبه ويتمعن فيه، كأنه يحاول قراءة أفكاره، وكان يخفي ابتسامة ماكرة كلما تذكر ما عرضه الحاكم على هذا الضابط الغر، ثم همس الرسول في أذن الحاكم طالبا منه أن يأذن للضابط تاكفاريناس باصطحابه إلى المدينة، بحجة رغبته الاطمئنان على رعايا الامبراطور.

قال الحاكم: حسنا حسنا لك ذلك أيها الضيف المبجل، وأرجو أن تعجبكم مدينتنا المتواضعة هي

ليست كروما، لكن جمالها سيبهركم كثيرا.

وما هي إلا لحظات حتى جاء المستشار، فسلم على الحاكم وضيفه، وأدهشه وجود الضابط النوميدي بلباسه الغريب، قال الحاكم: أيها المستشار العزيز، أعط توجيهاتك ليتم تعيين الضابط تاكفاريناس مسؤولا لمفرزة الحرس في مدينة لبدة.. وليكن واضحا أريد أن يتم كل شيء بأسرع وأفضل ما يكون.

ثم توجه إلى تاكفاريناس: أيها الضابط، قم باصطحاب سيادة رسول القيصر العظيم إلى المدينة، وفر له كل ما يحتاجه وقم بتنفيذ ما يأمر به، دعه يرى جمال المقاطعة وبهاءها.

توجه تاكفاريناس إلى بوابة القصر لتحضير العربة والأحصنة، ثم تبعه بعد دقائق رسول القيصر، سارت العربة يتقدمها تاكفاريناس بحصانه، وكان الرسول يطل برأسه وهو يتمعن في هذا الجمال الطبيعي الخلاب، وكان منظر الجبال الخضراء والسهول العامرة، يبعث على الفرح والنشوة، والنهر يمتد بعيدا بين الجبال الشاهقة كأنه وريد الحياة الذي يغذي هذا الجسد الطبيعي، وقبل أن تقترب العربة من باب المدينة، شاهد الرسول منظرا أعجبه كثيرا، كان حقلا كبيرا شاسعا يمتد من طرف الوادي ولغاية قمة الجبل، تحيط به أشجار النخيل، فتمنى لو كان يمتلك هذه القطعة من الأرض،

فطلب من تاكفاريناس أن يحاذيه بحصانه ليشرح له ما لفت انتباهه، فأخبره أن هذه الحقول تمت مصادرتها من أهلها فأصبحت تحت إدارة المقاطعة، ثم سأله عن مصير ملاك هذه الأراضي، فأخبره أنه جرى تهجيرهم أو طردهم وترحيلهم إلى مناطق أخرى، وبعضهم ما زال يعمل في أرضه التي لم تعد من ملكه.

لمس تيبيوس حزنا في كلام الضابط، فقال: وهل كانت هذه الأراضي بكل هذا الجمال والعطاء قبل أن يتملكها الرومان؟

لم يجب، ولم ينتظر الرسول أن يسمع إجابة ترضيه، لذلك استمر في التمتع بما يراه، ساد الصمت بينهما إلى أن دخلت العربة المدينة، فقال الرسول ممازحا وهو يهم في النزول: أرني عجائب مدينتكم وآمل ألا تكون بخيلا علي في رؤية كل شيء.

أجاب تاكفاريناس: أمرك سيدي، ثم سار به في دروب المدينة وأزقتها، فوجدوا في استقبالهم رئيس تجار السوق وبعضا من أعيانها، وما هي إلا برهة حتى حضر حاكم المدينة وحاشيته، وأشد ما أدهشهم رؤيتهم لتاكفاريناس في ذلك الزي العجيب، كتموا دهشتهم وذهب ظنهم أن تاكفاريناس سيكون هو صاحب الشأن في هذه المدينة، همس حاكم المدينة لأحد معاونيه قائلا: هل سبق لك معرفة هذا الضابط الجديد؟ أكاد

أجزم أنه سيكون الحاكم هنا، فأجابه معاونه بالنفي، لكنه أكد صحة ما ذهبت إليه ظنونه.

اعتذر الرسول عن قبول الضيافة، فشكرهم طالبا أن يدعوه يرى ويشاهد براحته.

ثم قال: هيا بنا نكتشف أسرار نوميديا، لم يكن في المدينة أي سر يستحق الاكتشاف، فهي نموذج للمدينة الرومانية الريفية، بما فيها من بضائع ومعروضات وحرف، وما تقدمه من خدمات وترفيه، أين هم النوميديون أيها الضابط؟ سأل رسول القيصر.

لم يجد تاكفاريناس حرجا بالقول، إن هذه مدينة للرومان فقط، ولا يحق للنومديين دخولها والسكن فيها.

- أليس في هذه المدينة سوقا للعبيد؟

- بلى يوجد في نهاية هذا الطريق سوقا للنخاسة، ثم مضى به إلى ذلك السوق، وكانت دهشة الرسول تيبيوس أكبر عندما رأى جميع العبيد إما من ذوي البشرة السوداء أو من الأجانب، فسأل ثانية: ألا تبيعون النوميديين هنا؟

أجاب تاكفاريناس بلؤم، ليس لدينا عبيدا وليس فينا أي عبد، وكانت لديه الرغبة بالاستفاضة في الحديث، لكن سعال الرسول قطع عليه المواصلة، فانتبه لنفسه

وقال، يمكنك إن شئت شراء العبيد المصريين، إن لهؤلاء ميزة خاصة يفضلها النبلاء.

أما رسول القيصر فألح في طلب جارية نوميدية، ولم يخف رغبته في عشق بنات الجنوب، وكان يبتسم كاشفا عن أسنان بيضاء سليمة، أتمنىّ العودة إلى روما صحبة بنات البربر، ولما رأى عدم اكتراث تاكفاريناس لرغبته الرعناء، قال بحنق: أرجو أن أرى جاريتين نوميديتين الليلة..ولك أن تعتبر ذلك أمرا أيها الضابط.

فقد الضابط توازنه، فقد تلون وجهه وتغيرت سحنته، ثم قال هازئا وهو يقترب من أذن الضيف: ألم ترضيك زوجة الحاكم وابنتها.

لما سمع الرسول تيبيوس ذلك، انتفض كمن لدغته عقرب صحراوية، فضرب صدر تاكفاريناس بقوة، وقال: سوف أقطع لك هذا اللسان الذي يتفوه بما لا يعلم، وسوف أنتزع عينيك من محجريهما حتى تتعلم الأدب والصمت.

أمسك تاكفاريناس بعضد الرسول، وضغط على ساعده بكل قوته، حتى احمر وجه العجوز، لك أن تفعل ذلك هذا إن غادرت سيرتا حيا، وقال بهمس: عليك أن تطبق فمك النتن، فلا أظن الحاكم سيرضى بأن تلهو مع أهل بيته.

وصلت رسالة التهديد واضحة جلية، فلن يتوان عن

التشهير به أمام أهل المدينة وصاحب المقاطعة، وسوف تصل أخباره إلى روما بسرعة، فكم من السيناتورات يضمرون له العداء، وهو الطامع في أن يكون أحد أهم رجال البلاط القيصري، فالتزم الصمت، وهو يشعر بألم عظيم في صدره، عاد الموكب، وقد أضمر كل واحد العداء والحقد لصاحبه، سأل لوكيوس، ألم تعجبه مدينتنا؟ قال الضابط، إن الرسول يعاني من مغص في معدته.

استأذن تاكفاريناس لتناول الطعام، فذهب كعادته إلى الطباخ سيارس، فألقى التحية ورمى بنفسه على الأريكة وهو يحاول أن يستعيد ما جرى في المدينة، فأحس بالندم على عصبيته وعجلته، ولاحظ عليه صديقه سيارس هذا الشرود وتلك الكآبة، فلما وضع الطعام وجلس بجانبه، كان تاكفاريناس شاردا في أفكاره، رغم ثرثرة العجوز وحديثه عن الطعام والضيوف، وأنه يحتاج إلى إجازة طويلة، فما كان منه إلا أن هز صديقه الضابط من يده قائلا: أنت لست معي اليوم أبدا، أين وصلت في شرودك.

انتبه لنفسه وقال: أخشى أني ارتكبت حماقة كبيرة اليوم، فأدرك العجوز بحكم سنه وخبرته أن صديقه الضابط لا بد أن تفوه بأشياء لم يكن ينبغي البوح بها، قال تاكفاريناس، أجل لقد قذفتها في وجهه، فاغتم الرجل وكاد يفقد وعيه.

- بل أنت من فقد وعيه أيها العجول.. تعلم كيف تضبط أعصابك قبل لسانك، هنا مجرد خدم لا قيمة لنا عند هؤلاء الرومان.

كان لهذه الجملة مفعول السحر في نفسه، استفزته وأثارت عصبيته، فقام وتناول ملعقته وأخذ يأكل بنهم، وهو يقول، في بلادنا ونخدم غيرنا.. سوف نرى كم ستطول هذه العبودية.

تابع العجوز بحكمة العراف المجرب: هه لو أراد نصف عذراوات نوميديا لأتينه طائعات راغبات عاشقات..أقسم بالرب ماستيمان والربة إفري أنهن سيفعلن.

امتعض تاكفاريناس وتكدر، فتابع سيارس: لا تراهن على أحصنة لا تصلح إلا لحراثة الأرض.

❁ ❁ ❁

عند الحدود

ما من مخلوق إلا وعنده مركب خوف وخشية، لكن ممن وكيف؟ ما يتعلق بتاكفاريناس، كان جالسا يتأمل القصر الماثل أمامه، من الصعب عليه نسيان أو تجاهل أصحاب القصر قبل أن يؤول للرومان، ثم جاءه من يدعوه لمقابلة الحاكم، فظن أن رسول القيصر قد أخبره بما كان بينهما، كانت هذه من الحالات النادرة التي جف فيها فمه وصار قلبه يخفق بشدة، والحق يقال ليس أهون على الحاكم من أن يأمر بقتله وصلبه، ولن يجد من ينصره أو يشفع له.

سار مطرق الرأس يفكر، ولشد ما كانت دهشته عظيمة عندما طلب منه أن يستعد للالتحاق بمفرزته فورا، عند مغادرته، شاهد عددا من الضباط الرومان تبدو عليهم آثار التعب والسفر، وكانت ملابسهم مغبرة كأنهم كانوا في جوف الصحراء، وسمعهم يتحدثون عن غارة نفذها الجيتوليون ضدهم.

لمح وجها حبيبا ومألوفا يعرفه جيدا.. إنه صديقه تاكسيلتوس، النمر، تعانق الصديقان طويلا، لم يجدا

الراحة في تبادل الحديث، فاكتفى تاكفاريناس بدعوته للعشاء، كان تاكشيلتوس مساعدا في الجيش الروماني، وله شقيق يدعى مازيبا، يعمل ضابطا في الجيش الموريطاني، وهو من الناقمين على الرومان وعميلهم يوبا، الذي حسب قوله على استعداد للعمل كالكلب الطائع ليس على باب القيصر وإنما ويا للأسف على باب الحاكم.

انفض الاجتماع في بيت الحاكم، أخذ تاكفارينس صديقه تاكسيلتوس إلى بيته، وكان الرجلان يثرثران ويضحكان أثناء الطريق، قال لزوجته أكرمي وفادة ضيفنا، فقد أفلت من نيران أهلنا في الصحراء، فالحمد والشكر للإله أمناي على نجاته.

كانت المائدة عامرة بلحم الضأن والخضروات الطازجة المطهية جيدا، وكان الموريون لا يأكلون لحم البقر لأنه محرم أكله في ديانتهم، وقدموا للضيف عصير الفاكهة الطازج، ثم قال تاكفاريناس مازحا: أظن أن ضيفنا يشتهي كأسا من النبيذ الأحمر، فاستحسن تاكسيلتوس الفكرة، فأحضر له تاسفاوت شقيق تاكفاريناس قارورة من الخمر، واعتذر تاكفاريناس عن الشرب ولكنه جارى صديقه بشرب العصير، وانضمت إليهم لاحقا شقيقة تاكفاريناس الغادة الجميلة تيزين، ذات العشرين ربيعا، وكانت طويلة القامة تتدلى خصلاتها السوداء حتى خصرها، ذات عينان سوداوان

تمنحانها وجها فرعونيا جميلا، وكانت تسترق النظر إلى صديق شقيقها الذي بادلها نفس النظرات، ومعها شقيقها تاسفاوت، فسأل تاكسيلتوس صديقه منذ متى استنكفت عن عبادة الربة إفري والرب بعل حمون، فقد عهدتك مخلصا لهما؟

أجاب تاكفاريناس بسؤال آخر: بل قل متى اقتنعت بعبادة هذه المرأة إفري، فأنا على دين زوجتي ماسيليا وهي كما تعلم من أهل الصحراء الذين يعبدون الرب الواحد.

قال تاكسيلتوس: أنتم المازيليون تعبدون ماستيمان وتانيت، ضحك تاكفاريناس وقال: يبدو أننا نحن الأمازيغ لم نتفق على رب واحد نعبده، فليس جميع المزالمة يعبدون من ذكرت، ففينا من يعبدون القمر تيزيري، وبعضنا يعبدون الشمس ويقدسون إفري، ثم تابع ضاحكا: وأنتم الموريون من تعبدون؟ روما على ما أظن. قالها وندم.

-يا لك من شقي يا تاكو، قال تاكسيلتوس، كل الأمازيغ يعبدون روما.

-إلا أنا، وأهل بيتي، قال تاكفاريناس.

كان الموريون يعبدون غورزيل، وكانوا يصورونه على شكل رأس ثور، وهو عندهم ابن الوحي آمون، بينما عبد سكان الصحراء الإله أمناي وهو في لغة

الطوارق يعني اسم الله تعالى.

انتهزت ماسيليا الفرصة لتغير مجرى الحديث، فأخذت تتحدث عن الأحلام ومعانيها، قال تاسفاوت: لا أظنكم تعطون كبير اهتمام للأحلام ومعانيها، فلندع هذه للعرافين، تذكر تاكفاريناس حلمه، نظر إلى زوجته، هزت رأسها كأنها قرأت ما يدور في ذهنه، أخبرتهم أنها ذهبت إلى العرافة زورغا التي قالت إن أمرا جللا سوف يقع، وسوف تسفك دماء كثيرة.. فاستوقفها زوجها مؤكدا أنه يؤمن بالأحلام لكن ليس كما يتناقلها الناس.

بات الضيف ليلته في منزل صديقه، وعندما آوى الرجل إلى زوجته ماسيليا أخبرته أن حلمه لابد أن يتحقق وأن عليه الحفاظ على أحبته وأهل بيته.

استلقى تاكفاريناس، وأخذ يستمع إلى تفسيرها لذلك الحلم، وهو في حقيقة الأمر يتمنى نسيانه، والمرأة تستفيض في شرح ظن العرافة، وقد زادت عليه من خيالاتها، وكل همها أن تخفف عنه، كان عاجزا عن إسكاتها، ثرثرتها تعطي نغمات موسيقية إلى لوحة يحاول قراءة ملامحها، ذهب تفكيره لما وقع في سوق المدينة، انشغل عن الثرثرة.. ماذا سيكون لاحقا، قال في سره، طالما أغلق رسول القيصر فمه فلا مبرر للخوف، رفع صوته وهو يتحول للنوم على جانبه، أرجو أن تجهزي لي عدة السفر كاملة، فأمامنا مهمات

أرجو أن أتمكن من حملها، قال ذلك وهو أكثر شكا في إمكانيته لتحمل ما سيكون.

وصل تاكفاريناس إلى تبسة مساء، وقد اتخذ طريقا يمكنه من السير بمحاذاة خط الليمس، لاحظ أثناء استراحته الفرق الكبير بين مدن وقرى الشمال، وتلك الجنوبية حيث يقيم الأمازيغ المطرودين، لا يكلف الرائي نفسه كبير عناء ليكتشف الفرق بين الأراضي الجدباء والفقيرة الواقعة عن يمينه وتلك الخصبة المزدهرة الواقعة على شماله.

حط رحاله حيث تعسكر مفرزته، تلقى أوامر فورية من القائد جورجيوس بالاستعداد غدا لجمع ما يكفي من العمال للمباشرة في العمل.

نام ليلته تلك دون أن يتناول عشاءه، أرهقته الرحلة كثيرا، استيقظ عند السحر على يد أحدهم وهو يحاول العبث بأمتعته، أمسك بعضد السارق وجذبه بقوة كأن يده مقبضا من حديد، صرخ السارق من الألم، وأخذ يرجو ويتوسل الصفح، سأله عن نفسه فعرف أنه صف ضابط نوميدي من شولو «القل»، صفح عنه مرغما، لم تكن عنده الرغبة في أن يقول الرومان إن العساكر النوميديين من اللصوص.

سارت الأسابيع الأولى عادية ورتيبة، تم جمع العمال وفرزهم للبدء في تبليط مدينة لبدة، وكان هؤلاء

ينقلون الحجارة على الحمير والبغال، ثم يقومون بصقلها وترصيصها ورصفها، وقد لاحظ الكم الهائل من القسوة الذي يتحمله هؤلاء، فهم بالكاد يلتقطون أنفاسهم، ويعملون من ساعات الفجر الأولى ولغاية غروب الشمس، ولم يكونوا يأكلون إلا ما يقوم بأودهم لإكمال عملهم، لم يكن هو بقسوة الرومان وبطشهم، فقد كان يحنو على العمال ويشد من همتهم، ويتقاسم معهم أحيانا بعض الطعام، وكان سلوكه هذا مستهجنا ومحل انتقاد بقية الضباط.

رأى القائد أن يكلفه بجمع المحاصيل من الفلاحين، وفرض عليهم خراجا كبيرا لا يمكن تحمله، اسمع أيها الضابط من يتأخر عن السداد، اسجنوه وصادروا أرضه، ثم تابع بشدة: ثلث الغلال لهم والثلثين للخزينة.

قال ضابط لطيف المعشر: مثل هذه الضريبة سوف تؤلب الناس علينا، ولا أظنهم سيقبلون بمثل هذه القسمة، فاقترب القائد منه، حتى كاد أنفه يلامس أنف الضابط، ثم صاح مهتاجا: ماذا قلت..لن يقبلوا..متى كنا نأخذ موافقتهم حتى يقبلوا أو يرفضوا؟ من يرفض أو ترونه يفكر بالرفض فاسحلوه إلى السجن سحلا.

احمر وجه الروماني، أحس تاكفاريناس أنه دمية، فقد انتصر لهم روماني ووقف هو عاجزا عن الكلام، كم تمنى لو أنه امتلك من الشجاعة ما يكفي لضرب هذا

المتغطرس على فمه، للأسف لم يفعل، وعندما خرج من قاعة الاجتماع لحقه الرقيب أول عرابيون، وسمعه يقول مبتهجا: لندعهم يأكلون بعضهم، فنهره بشدة: إنهم يأكلون لحمنا أيها الأحمق.

نفذت الأوامر بحذافيرها، ومن الضباط من زاد عليها قسوة ووحشية، تحولت مفارز الجند نحو المدنيين البسطاء تنهب ما استطاعت من رزقهم وتعبهم،

كانت الدوريات تستعد للخروج صباحا فجاءهم الأمر بالتوقف والانتظار، فتسمر الجميع في أماكنهم وهم يخمنون، خرج عليهم القائد جورجيوس نفسه، على حصانه الأشهب وبزته الحربية كاملة، جمع الضباط وأمرهم بتوحيد دورياتهم ومفارزهم، فسوف يقودهم هو بنفسه، وسيشرف شخصيا على سير العمل في المزارع والمدينة.

رغبة منه في تعليم ضباطه كيفية التعامل مع البربر، دخل جورجيوس متبخترا بحصانه ساحة إحدى القرى، جرى استدعاء السكان وجمعهم في الساحة، ثم ألقى القائد خطبة نارية في جنده، وحتى يجعل لكلامه مفعولا أشد وأقسى، تناول سوطه وانهال على ظهر أحد الشباب، لأنه لم يكن واقفا باعتدال، فكان يضربه وهو يقول، وهل علي أن أعلمكم أيضا كيفية الوقوف باحترام لقادتكم، خذ هذه أيها الوغد وهذه أيضا وهذه..وكان

السوط لا يترك جسده إلا وقد انتزع بعضا من ثيابه الرثة، ثم اشتد هياجه، فضربه على وجه ضربة قلعت عينه اليمنى، فتقدم أحد الضباط من بين الصفوف، بحركة خفيفة وبوثبة واحدة، أصبح أمام القائد الهائج، فأمسك السوط بقوة وجذبه فسقط الروماني جورجيوس عن جواده، حدث ذلك بسرعة خاطفة وسط آهات الجمع، ولأنه يعلم أنه أتى بأمر لا غفران له، فضل أن ينجز ما بدأه وليكن بعدها ما يكون، فاستل خنجره وأمسك بالقائد المصروع، وضع حد الخنجر في رقبته، وأمام هلع القائد جورجيوس وصدمة الضباط تراجع هؤلاء إلى الخلف، إلا بعض نفر انضموا للضابط الثائر بعد الذي رأوه من وحشية، وكان من هؤلاء الرقيب عرابيون الذي أصبح لصيقا لسيده، فجذب الضابط حصانه من خطامه، وقفز كالهر مع فريسته وانطلق مبتعدا، وهو ينذرهم من محاولة اللحاق به أو مطاردته، ولحق به من انضم إليه من أولئك النفر.

عاد بقية الضباط إلى معسكرهم وهم في حالة فوضى، أرسل نائب الأمير برقية إلى الحاكم العام أبرونيوس.

رسالة موجزة مختصرة حملتها حمامة، جاء فيها: لقد تمرد الضابط تاكفارينس وأخذ معه القائد جورجيوس أسيرا، وانضم إليه بعض النفر من الجنود، ونحن بانتظار توجيهاتكم..التوقيع نائب الأمير يوليوس».

أعلن النائب النفير العام، وأمر جنده بملاحقة الضابط المنشق تاكفاريناس، كما ألح عليهم أن يعودوا ومعهم الأمير جورجيوس حيا.

بهذه الحادثة انطلقت ثورة تاكفاريناس، لكنها في واقع الحال لم تكن ثورة مصادفة، وإنما تراكمت المآسي والأحداث وأعمال العنف والقهر حتى اختمرت، وكانت حركة الأمير القائد الاستعراضية نهاية مرحلة من حياة نوميديا الشرقية.

جمع تاكفاريناس حوله قطاع الطريق والمشردين وقادهم إلى النهب، فلم يكن جنده الأوائل من الثوار المنادين للحرية، هذا إن كانوا يعرفون للحرية معنى غير القتل والسلب والدمار، لكنه مع الوقت جعل منهم مشاة ففرسانا نظاميين وسرعان ما تحول من زعيم عصابة إلى قائد حربي للمزالمة.

عندما نفذ حكم الإعدام بالأمير الروماني جورجيوس، كان يعي تماما ما يفعل، اتخذ من جبال الأوراس عرينا له، وكان شعاره «دعوهم يتذوقون ويتجرعون مرارة القتل».

زلزلت الرسالة أركان القصر، وبقدر صغرها وضآلة حجم حاملها كان لها وقعا مدويا على الجميع، وخاصة بوجود رسول القيصر، الذي ألقى باللائمة على الحاكم وحمله مسؤولية التمرد، قال وهو يلوح بإصبعه: لو

أنك تعاملت مع هؤلاء البربر الأوغاد بالقوة والشدة، لما وصل الأمر إلى هذه الدرجة من الخطورة.

لم يصمت الحاكم كعادته، قال غاضبا: تعال واجلس مكاني ثم أرني كيف ستحكمهم بالقوة والشدة، لم يخبرني أحدهم أن هنالك شدة أكثر من التي استخدمتها معهم.

حدث أن كان رئيس الخدم سيارس يجمع الأقداح من الغرفة، فلما استدار الحاكم وجده قبالته فلطمه على وجهه حتى أدماه، وكاد يغمى على العجوز النوميدي، أمر بإخلاء القصر من النوميديين، ثم أعطى أوامره بملاحقة تاكفاريناس والقبض عليه قبل أن يستشري خطره ويعظم تأثيره على السكان، لكن الوقت قد فات، علم الضابط تاكسيلتوس بما جرى، فالتحق بقومه في إيول «شرشال» .. ثار الموريطانيون على ملكهم يوبا الثاني، والتحقوا جميعا بالثورة بقيادة مازيبا.

في خريف عام 17م وقعت أول مواجهة عظيمة مع الرومان، جمع الأمير فوريوس كاميلوس، فرقته والفرق المساعدة وانطلق بقواته لمواجهة الثوار.

لجأ كاميلوس إلى خداع تاكفاريناس، وقد خمن أن النوميديين عندما يرون حجم القوات الرومانية وحسن تنظيمها، وما تتمتع به من انضباط وحسن تدريب، سوف يفرون خوفا وفزعا، ما سيحرمه متعة النصر عليهم، فقرر

أن يسحب جزءا من القوات، وجعل الفرقة الرومانية في المركز بحيث تكون وجها لوجه مع الثوار، سار القائد الروماني بحصانه قليلا، ثم توقف شاهرا سيفه وهو في مقدمة الجند وتوجه إليهم قائلا: اصمدوا أمامهم واستدرجوهم حتى يكونوا في الوسط، وإياكم من التقدم نحوهم، ثم أحكم الخطة فوضع السرايا الخفيفة وفصائل الفرسان على الأجنحة، وهكذا شكل فكي كماشة إن دخلها الثوار تمكن من إبادتهم وسحقهم، وكان يمني نفسه بالقبض على تاكفاريناس وإخماد نار الثورة، فقال أحد الضباط متسائلا: وهل نبقي على أسرى الثوار أو نقتلهم... تقدم الأمير كاميلوس من الضابط، فكبح جماح جواده ثم قال، هم قطاع طرق تمردوا على سلطة روما، فكيف تسميهم ثوارا؟.

لما رأى تاكفاريناس أعداءه، طمع بقلة عددهم، فأخذته نشوة التمرد والحرية، أسر بعدها لزوجته «لقد كدت أبكي من المرارة وأنا أرى الرومان يحصدوننا حصدا».. وقال لعمه حاديم، لقد خُدعنا ووقعنا في الفخ وكأننا طائر نعام لا يرى ما يجري حوله، لست أدري كيف فاتتني هذه الخديعة، فقال حاديم: ومتى كانت الحرب جولة واحدة يا ابن أخي؟

سرعان ما وصلت أخبار الانتصار إلى روما، فأصدر الامبراطور أمرا يمنح بموجبه القائد الأمير كاميلوس وسام النصر من رتبة فارس، وكذلك فعل مجلس

الشيوخ، وجعلوا له تمثالا في الساحة الرئيسية لمدينة روما.

بعد انضمام مازيبا وقواته من الموريين إلى جيش تاكفاريناس، اكتسبت الثورة بعدا وزخما جديدا، فلم يكن مازيبا حديث عهد بالعسكرية وفنونها، لما رآه تاكفاريناس يغذ صعودا في جبال الأوراس بالقرب من تازوقاغت «خنشلة» استبشر خيرا بمقدم شقيق صديقه تاكسيلتوس، وكان لقاء الرجلين حارا ووديا، وكأن الصداقة القديمة كانت بينهما، وقد أسر تاكفاريناس في أذنه قائلا: كم كنت معجبا بك عندما التقيتك في المرات القليلة في منزلكم، وتمنيت يومها لو كنا نعمل سويا، قال مازيبا: كنت أحدس وحدسي قلما خانني أنك سوف تقود ثورة ذات يوم.

وهكذا أصبح مازيبا النائب المساعد لتاكفاريناس، ورئيس غرفة عملياته العسكرية أي قائد أركانه، وكانت المفاجأة السارة التي انشرح لها قلب قائد الثوار، عندما أرسل بارباس زعيم قبائل الصحراء من الجيتوليين إلى تاكفاريناس مباركا ومشجعا ثورته.

❀ ❀ ❀

معارك متفرقة

اجتمع تاكفاريناس بنائبه في غرفة القيادة وكان معهما حاديم عمه، إضافة إلى ضابط المكلف بالتنظيم ماسينو، قال مازيبا، لا يمكنكم محاربة الرومان بطريقتهم الحربية، فهؤلاء مدربون ومنظمون جيدا، ومن الانتحار قتالهم وجها لوجه، وخالفه في الرأي كل من العسكري السابق حاديم والضابط ماسينو، لكن تاكفاريناس اقتنع بوجهة نظر نائبه، لكنه كان يشك في جدوى اعتماد أي طريقة أخرى للقتال، فقال مازيبا مدعما وجهة نظره، لماذا لا نحاربهم مثلا بطريقة حرب العصابات، فطلب منه الضابط حاديم أن يستفيض في الشرح فقال وهو يشير إلى الخارطة الرملية أمامه: ببساطة متناهية نفرض عليهم مكان المعركة وزمانها، ثم نتبع طريقة الكر والفر أي نضرب ونهرب، فنتمكن منهم ونرهقهم ونشتت قواهم.

ابتسم الضابط ماسينو لهذا الشرح وقال ساخرا: لكننا أيها العزيز مازيبا لسنا قطاع طرق وليس جيش الثوار من اللصوص، فاحمر وجه مازيبا من هذه

الملاحظة الساخرة، فقال: نحن أبناء البلاد ونعرف طبيعتها وتضاريسها جيدا، ولنا فيها أهل وعشيرة، وقد جربتم قبل أسابيع نتيجة حروب المواجهة، إذن نعتمد طريقة ملكنا العزيز يوغرطة، وهكذا انفض الاجتماع على تقسيم جيش الثوار إلى فئتين، واحدة منظمة على الطريقة الرومانية يقودها تاكفاريناس، والأخرى تقاتل على طريقة حرب العصابات يقودها النائب مازيبا.

كان تاكتيك يوغرطة العسكري، الذي نصح به مازيبا، يتلخص في شن حرب في مواقع عديدة، والهجوم في الوقت والمكان اللذان يختارهما بنفسه، والتركيز على إنهاك قوات الخصم، من خلال ملاحقات في الجبال والسهوب لا جدوى منها.

كانت وحدة استطلاع من الثوار، قد رصدت كتيبة رومانية تعسكر بالقرب من أحد الأودية في تبسة، وهي من الكتائب التي جرى تكليفها بملاحقة الثوار على سفوح الجبال، فرأى تاكفاريناس أن يباغتهم في هجوم ساحق، وكانت هذه هي المعركة الثانية التي يخوضها ضد الرومان وجها لوجه، فطلب من الثوار أن يتحضروا لهجوم مباغت على القوات الرومانية، فاعتمد هذه المرة أسلوبا جديدا، فقرر أن يحاصر هذه الكتيبة وينقض عليها بقوات من الفرسان والمشاة، وبالفعل تقدمت جموع الثوار من كل مكان على شكل نصف دائرة، فجعلوا النهر خلف الكتيبة الرومانية

وتقدموا بتشكيل واحد، ثم قام الفرسان بالإغارة على الكتيبة الرومانية، وتعالت الصيحات والهتافات من منتصر يشد في الهجوم وآخر لجمته المفاجأة، فجرى تطويق الكتيبة قرب نهر الشريقة بالقرب من تبسة، ونادى قائد الكتيبة في قواته أن يصمدوا ويهاجموا لكن الثوار نالوا منهم مقتلا، صاح القائد ديكريوس في جنوده وهو شاهرا سيفه، قفوا واصمدوا ولا تتراجعوا، لكن أحد الفرسان الرومان الهاربين من سيوف الثوار أطاح به أرضا، فشعر القائد بالخزي والإهانة، فانشغل عن قتال الثوار إلى تثبيت قواته ومنعهم من الفرار، ثم بدأ الثوار بهجومهم النهائي على الكتيبة، فتوجه أحد الثوار إلى حامل الراية الرومانية فطعنه في صدره حتى سقطت الراية أرضا، ثم داستها أقدام الجنود الهاربين ومن وراءهم من النوميديين الذين أخذوا يتصيدونهم بسهامهم، فوقف ديكريوس مع زمرة من جنوده يقاتل منفردا، ثم تجمع حواليه عدة نفر من الرومان وأعادوا كرة الهجوم من جديد، وهم يحاولون فتح ثغرة في القوة المحاصرة لعلهم يستطيعون النفاذ منها نحو مدينة تبسة، وكان تاكفاريناس يراقب المعركة عن جواده تيفان، فأدرك ما يخطط له القائد الروماني، فاندفع كالصاعقة لملاقاته، ثم تناول الفارس الروماني القريب منه بضربة قطع فيها ذراعه، ثم هوى على فارس آخر فحطم قلنسوته، وسمع تاكفاريناس صوت تحطم

عظم جمجمة خصمه، فتقهقر الجنود الرومان، وأخذوا بالتراجع صوب النهر، فمنهم من هوى بالوادي ومنهم الذي وقع أسيرا بين يد الثوار، ومن تمكن من الإفلات أصابه سهم في ظهره فخر منكبا على وجهه، ولم يتبق في ساحة القتال إلا القائد وبعض نفر، وكاد ديكريوس نفسه أن يفر لكنه شعر بالإهانة والمرارة أن يهرب أمام من يسميهم البربر، فأخذ يصيح كالمجنون، لن أعطيكم الفرصة لتقولوا بعدها إن القادة الرومان يفرون من ساحات القتال، فاندفع بحركة انتحارية نحو رماة السهام من الثوار، فانغرس في صدره أكثر من عشرين سهما قاتلا خر بعدها الروماني على ركبتيه والدم يخرج من فمه وأنفه، ثم سقط ميتا.

وصلت أخبار المعركة إلى الحاكم الروماني لوكيوس أبرونيوس، فثارت ثائرته وجن جنونه، فأقسم بشرفه أن يلقن تاكفاريناس درسا لن ينساه أبدا، وقد جاءته أخبار الهزيمة المرة وهو إلى جانب زوجته في الفراش، فقد أحضرت له الخادمة رسالة مستعجلة من نائبه يخبره فيها بمقتل صديقه المقرب القائد ديكريوس، وكانت دهشة المرأة عظيمة لهذا الغضب فسألته بدهشة: وهل هي المرة الأولى التي تهزمون فيها؟ فنظر أبرونيوس إلى زوجته وكأنه يكتشفها للمرة الأولى، ثم قام من فراشه وتوجه نحو الشرفة؛ فرفع يديه نحو السماء وقال: أين أنت أيتها الآلهة..كيف تقبلين

أن يقطع رقاب أبناء روما هؤلاء الهمج؟ وساعتها تذكر أبرونيوس أن له أربابا يجب دعوتهم والتقرب إليهم، فتوجه من ساعته رفقة نائبه إلى معبد جوبيتر الواقع بالقرب من قصره، لتقديم الأضاحي والقرابين، وكانت قد أشارت عليه زوجته بيلاروزا أن يضحي للآلهة حتى ترضى عنهم وتنصرهم.

لم يكن الحاكم أبرونيوس ممن يخشون تاكفاريناس، بل ولم يكن يحسب له حسابا جديا، وكانت كل خشيته من امبراطوره تيبريوس،

دخل الحاكم المعبد منكسرا ذليلا مهزوما، ولم تكن تلك عادته، فقد عرف عنه عدم اكتراثه للأرباب، فاستغرب الكاهن ذلك منه، فاستقبله هاشا باشا وهو يقول: لقد حلت على معبدنا التبريكات والتشريفات، فاندهش الحاكم لهذا الترحيب وقال بما يشبه الهمس، أخبرني أيها الكاهن المبجل، هل يمكنني النصر على هؤلاء.. ثم قطع جملته، فقد عز عليه أن يبدو كسيرا مهزوما أمام هؤلاء الرهبان، أمسك الكاهن بيد الحاكم وقاده نحو المذبح، ثم قدم له تمثالا يمثل ربهم جوبيتر فقبله الحاكم وهو جاث على ركبتيه، وقام الكاهن برشه بالعطر وماء الزهر ومسح على رأسه، ثم أخذ يتمتم بكلمات غريبة غامضة وقال: سيكون النصر حليفكم يا مولاي..سوف يكون، وقف الحاكم ثم تطلع إلى الكاهن بنظرة ملؤها الشك والريبة وقال: وإن لم يكن

ماذا سنفعل؟ لم ينتظر الحاكم سماع إجابة الكاهن بل انطلق نحو قصره وهو يلعن نوميديا وأهلها.

في تلك الظهيرة الممطرة، ناقش تاكفاريناس مع مجلس أركانه فيما يجب اتخاذه، فقال مازيبا وهو يضع سيفه جانبا: علينا أن نركن للراحة والهدوء، فلست أرى أي فائدة من شن هجمات جديدة في هذا الجو البارد والممطر، فسوف نكون في حالة ضعف أمام القوات الرومانية، أما حاديم فاقترح أن تعطى عطلة للجنود كي يطمئنوا إلى أهلهم وعائلاتهم، وقد طالت غيبتهم عن أحبتهم، وغمز لتاكفاريناس بعينه وكأنه يذكره بموعد غرامي مع زوجته التي جاءت خفية من سيرتا إلى الأوراس، فتجاهل تاكفاريناس الملاحظة، رغم النشوة التي اعترته وهو يتذكر زوجته وأولاده، فقال تاكفاريناس وهو يغالب مشاعره وأشواقه، لو أننا استرحنا واستكنا أخشى أن عدونا لم ولن يعرف معنى الراحة حتى القضاء علينا، أما أن نعطي إجازة للثوار فلا أرى ذلك بالرأي الصائب، ونحن ما زلنا في السنة الثانية لثورتنا، فلندعهم يعاركوا مصاعب الثورة وتحدياتها، وبعدها سننظر في أمر الإجازات، هز مازيبا رأسه موافقا، فليس من الحكمة التهاون والأمر مازال في بدايته، فسأل: وماذا ترى؟

قال تاكفاريناس وهو يمسد لحيته: ماذا لو تجاوزنا الحدود ونلنا من الحاميات الرومانية المنتشرة بعد خط

الميمس، فأنتم تعلمون أننا بحاجة إلى الغنائم للطعام والشراب وللعائلات الجوعى التي خلفناها وراءنا.. وهكذا استقر رأيهم على تلقين الرومان درسا جديدا، وأن قوات الثوار قادرة على تمريغ أنف روما بالتراب في كل بقاع نوميديا.

إن هي إلا بضعة أيام على هذا الاجتماع حتى هاجم تاكفاريناس وجنوده حصن ثالا الواقع في تونس، وكانت المفاجأة التي لم يحسب لها حسابها، فجاءت النتيجة على غير ما توقع قائد الثوار ومجلسهم العسكري، فقد وجدت قواته القلعة الرومانية في انتظارهم، فقام المحاربون الرومان القدامى، بالتصدي لقوات تاكفاريناس ودحرها، ورغم ذاك واصلت القوات النوميدية حرب العصابات ضد الرومان.

كانت هذه المعركة هي الريح التي عصفت بمكانة الحاكم أبرونيوس ومنزلته، فأطاحت به كما أوصى الرسول تيبيوس، فقد حمل مستشارو القيصر الحاكم العام مسؤولية ما يجري في نوميديا، وأقنعوا الامبراطور بضرورة التخلي عنه وعزله من منصبه.

* * *

بليزوس ودولا بيلا

في روما كان رسول القيصر ومستشاره يهمس في أذن امبراطوره بأخبار المعركة الأخيرة، فاستشاط الامبراطور غضبا، كتب مخاطبا مجلس الشيوخ «عليكم أيها السيناتورات المحترمين أن تحزموا أمركم وتختاروا بروقنصلاً ذا خبرة عسكرية ولياقة جسمانية عالية لشن حملة ضد المتمرد تاكفاريناس» فاستغل المستشار الفرصة نصح بتعيين بليزوس فهو أفضل شخص لشغل هذا المنصب، فأوصى القيصر تيبريوس المجلس بتعيينه بروقنصلًا عوض الحاكم لوكيوس أبرونيوس.

نزل خبر تعيين بليزوس بردا وسلاما على قلب المستشار تيبيوس، فقد ضمن لنفسه مكانا في إفريقية، وتخلص من ذلك الحاكم العجوز المزعج، أما الحاكم الجديد فكان لا يقل شراسة وخبثا عن صديقه المستشار، حتى إنه كان على استعداد لحرق نوميديا وإبادة أهلها عن بكرة أبيهم إرضاء لشهواته في السيطرة والحكم، فدخل على الامبراطور وهو في بزته العسكرية، وكان

يتمتع بلياقة ورشاقة وهو لم يتجاوز منتصف العمر، ولقد قضى معظم حياته على صهوة جواده، حيث خاض معارك عديدة في أوروبا الشرقية ضد القبائل السلافية، فقبل يد امبراطوره الذي بشره بأنه سوف يرسل معه الفرقة الامبراطورية التاسعة، وتعد هذه من أقوى وأشرس فرق الجيش الامبراطوري، سعد بليزوس بسماع هذا الخبر، فأكد لقيصره بأنه لن يسمع إلا الأخبار الطيبة التي ترضيه وتسعده.

لم مازيبا لم يكن راض عن جشع الثوار وطمعهم في الحصول على مزيد من الغنائم، وقد اعترف لقائد الثورة بذلك صراحة، فقال تاكفاريناس وهو يربت على كتفه: لكن ألم ينهب الرومان ثرواتنا ويرسلوها إلى روما، ونحن نعمل على إعادتها إلى أصحابها، فأي شيء يزعجك في ذلك؟

- لقد بات هم الرجال هو التقاط الغنائم وتكديسها، وذلك يعني استقرار الثورة وحراسة تلك الثروة، ليس هذا عمل الثوار.

ثم أخبرهم أنه يفكر في إرسال وفادة إلى روما، طالبا السلام والجلاء.

قال مازيبا: هل تظن من الحكمة أن نصنع مثل ذلك؟

شاطره عمه خاديم الرأي وقال: أرى أن هذا وقتها، وقد جئت إليكم من أجل ذلك، لقد تم عزل الحاكم

أبرونيوس وهم بانتظار وصول الحاكم الجديد.

كرر مازيبا رأيه مشددا على مخارج الكلمات: تلك مغامرة غير محمودة العواقب والنتائج، لكن تاكفاريناس جهز وفدا برئاسة العجوز الحكيم ماكسين، وحمله رسالة طالب فيها الامبراطور بسحب قواته من نوميديا، وفي حالة رفضه فإنه يتحمل وزر حرب لا منجاة منها لأحد.

في الوقت الذي أبحر فيه رسول تاكفاريناس إلى روما، كان الحاكم الجديد يحط رحاله على أرض نوميديا، ولما دخل العجوز البلاط الامبراطوري ذهل من البذخ والترف الذي شاهده، وعندما وصلت رسالة تاكفاريناس إلى الامبراطور تيبريوس، قرأها وهو يتميز من الغضب، أمر بإحضار حامل الرسالة، فجاؤوا به محمولا من كتفيه وألقوه أمام القيصر، أشفق على العجوز الرسول، وسأله عن حاله، وكان العجوز حكيما كما توقع تاكفاريناس، فقال وهو ينحني أمام الامبراطور: إن حنان الأب هو الذي دفعني لحمل هذه الرسالة، رغم علمي بالخطر الكبير الذي قد يلحق بي، لكنني كما أخشى على أبنائي من القتل أحمل نفس الخشية على الجنود الرومان من القتل، وكم أتمنى ألا أغمض عيني حتى أرى السلام يعم على ضفتي البحر.

أعجب الإمبراطور ببلاغة العجوز ماكسين، فعدل

عن قرار إعدامه، قال: سوف تبقى في روما أيها العجوز حتى تتحقق أمنيتك برؤية السلام في بحرنا.

فور وصوله: كان أول شيء صنعه بليزوس أن تراخى كثيرا للملك يوبا الثاني فمنحه أكثر من ثلثي الأراضي الموريتانية، ثم استدعى أعيان وزعماء قبائل المزالمة إلى قلعة ثبوسبتوس عند مدينة بوجي، لكن تاكفاريناس نصحهم بعدم تلبيتها، كان يخشى الخديعة، لكنهم طمعوا في أن يصغي إليهم، وذهب ظنهم أنه سيستجيب لرسالة تاكفاريناس القيصرية.

كان بليزوس قد أعد مع ضباطه الجدد كمينا لا فكاك منه لأحد، فاطمأن شخصيا على سلامة أبواب القلعة، الواقعة قرب توبوسو، وأعد مائدة عامرة بالطعام والشراب، ثم وزع الحراس والجند في كل ركن بالمنطقة والقلعة وما حولها، ولما اقترب وفد أعيان المزالمة، نادى الحاجب بأن هؤلاء يستأذنون للدخول على الحاكم العام، فأذن لهم فلما دخلوا عليه كان قد وضع تمثالا يمثل الامبراطور إلى جانبه فأمرهم بتقبيل يد التمثال ففعلوا وقد أخذت منهم الدهشة مأخذها، ثم قال: لعلكم عجبتم من سلوكي هذا، لكني عاهدت مليكي ومولاي أن أكون مخلصا وفيا له في جميع أعمالي، وأنتم كما تعلمون من أهم أعمالي ومشاغلي.

قام الحاكم من مجلسه وتقدم نحو الوفد، وأمرهم

باتباعه إلى قاعة الطعام، بعد أن يأخذوا قسطا من الراحة، ثم ما لبثوا أن لحقوا به، وعند الباب وقف الحراس بكامل عدتهم وجاهزيتهم فأمر الوفد بنزع أسلحتهم وخناجرهم، ففعلوا وهم يتهامسون أنه لا بد أن يغدر بهم، ثم دعاهم إلى الطعام فجلسوا وقد غشيهم الصمت والتوجس، فقال الحاكم لقد أعددت هذه المائدة خصيصا لكم، وهي عربون صداقة ومحبة مني إن أنتم تخليتم عن تاكفاريناس وسلمتموني رأسه، فامتنع الوفد عن الأكل وساد بينهم لغط كبير، وقف الحاكم بليزوس بكامل أبهته وأمسك بمقبض سيفه وقال: وإن أبيتم فليس لكم عندي إلا حد هذا السيف، وأمر بقطع رؤوسهم جميعا، طار خبر المذبحة إلى جميع أرجاء نوميديا، ولم ينم تاكفاريناس ليلته تلك، فقد قضى في تلك الخديعة خيرة أصدقائه وأحبته.

كانت تلك المرة الوحيدة التي شاهدته فيها زوجته ماسيليا حزينا مغموما يبكي، وعندما اقتربت منه شاهدت الدمع يملأ مقلتيه، فحارت هل تخفف من حسرته ولوعته، أو تعزي نفسها وما أصابها، فقد خسرت هي أيضا بعض أحبتها.

استيقظ تاكفاريناس قبل بزوغ الفجر، وكأنه بانتظار انقضاء الهزيع الأخير من الليل، وتوجه إلى إقامة نائبه مازيبا، فاستيقظ هذا من نومه وقد ظن أن أمرا خطيرا قد أحدق بصاحبه، فقال وهو يقفز من سريره، أي شيطان

جاء بك في هذه الساعة، قال تاكفاريناس: وهل تظن أني عرفت طعما للنوم غير غفوة صحوت منها وأتيتك، وتابع وهو يكز على أسنانه، علينا أن نلقن هذا الحاكم الجديد دروسا لن ينساها ما حيي.

فلنطلق النوم يا صديقي، فسوف ننام طويلا بعد ذلك، إني أسمع صوت المعركة يناديني، ودماء الأحبة تدعونا للثأر والانتقام، فوافقه مازيبا على ذلك، والحق كان هذا القائد بارعا في حرب العصابات وخبيرا فذا بها، وجاءت الأوامر بالنفير العام، ثم طار بعض رسله إلى الصحراء، فلا بد من تحرك قبائل الجيتوليين والكينثيين، فهؤلاء يمتلكون مقدرة خاصة على إشعال جبهة الحدود كاملة.

اجتمع بليزوس مع هيئة أركانه فطلب منهم أن يضعوا له تصوراتهم للقضاء على الثورة، قال الضابط تاكسوس: إن أفضل طريقة لمحاربة أي حركة ثورية هو اللجوء إلى طرقها ووسائلها، وكما تعلمون فإن النوميديين ليسوا بالقوة الكافية لمواجهتنا، لذلك اعتمدوا حرب العصابات، وأنا أرى أن نشل حركة هؤلاء الثوار.

استحسن بليزوس الفكرة، فقام عن كرسيه، واقترب من خارطة رملية تمثل كل مناطق نوميديا، وأشار بعصا رفيعة طويلة كانت بيده إلى الخارطة، وقال:

هم ينتشرون في كل هذه الجبال، وفي الصحراء أيضا، وعلينا أن نقطع أوصالهم، وندمر جميع قواعدهم.

ولكن كيف... كيف أخبروني قال بليزوس وهو يحك رأسه؟

أجاب ضابط آخر: النوميديون يهاجمون في أواخر الربيع وبداية الصيف طلبا للمحاصيل والغلال، ويمكننا قتلهم بطلبهم هذا، فلنحصن مخازننا بالحاميات والكمائن، ونسيطر على جميع الطرق الرئيسية بواسطة الكتائب الثابتة، وبخصوص الطرق الفرعية يمكننا السيطرة عليها بالمجموعات المتحركة، ثم نبعث لهم من يغريهم بمهاجمتنا من حيث نريد نحن.

فتابع بليزوس مكملا اقتراح الضابط: وليس لنا لتنفيذ ذلك إلا الأمازيغ أنفسهم، ولن نعدم وسيلة لشراء الذمم والضمائر، فماذا ترون؟

خلف بطليموس والده العميل يوبا الثاني، وكان الملك الجديد على خلاف أبيه، معجبا ومؤيدا للثورة، فأرسل تاكفاريناس شقيقه تاسفاوت برسالة إلى الملك الشاب، واتفق أن يشاغل الأعداء لفترة من الزمن حتى يتمكن تاسفاوت من الوصول إلى عاصمة الموريين شرشال.

اتخذ تاسفاوت طريقا مختصرا، لاجتياز المسافة الطويلة بين آريس وشرشال، وكان يسير ليلا ويستريح

نهارا، وغاب عن باله أن الدوريات الرومانية كانت لا تتجول إلا ليلا، وبينما كان يحاول العبور من جهة سيرتا تعرف عليه أحد الفلاحين، فسارع بإخبار الرومان، فجرى إلقاء القبض عليه، وتسليمه إلى الحاكم بليزوس، هي طعنة جديدة أصيب بها تاكفاريناس بيد من يقاتل من أجلهم، مثل تاسفاوت أمام يدي الحاكم خيره بين ثلاث، أن أطلق سراحك إن أتيتني برأس أخيك وهذه لن تفعلها، وإذن أخبرني عن مكان الآبق تاكفاريناس فتموت ميتة هانئة، أو أعذبك حتى تتمنى الموت ولن تناله، وستخبرني بمكانه.

قال تاسفاوت: بل أخبرك بمكانه وتطلق سراحي، سر الحاكم لذلك، ولم يكن يحسب أنه سيسمع مثل هذا الاعتراف السريع، أمر الحراس بفك قيوده، اقترب بليزوس من تاسفاوت، وقال: وإذن أين هو؟

اختطف الثائر السيف من حزام الحارس القريب منه، وقبل أن يتمكن من غرسه في صدر الحاكم كانت السيوف تنهال عليه فتقطعه إربا.

لما رأى الروماني تلك الشجاعة، قال لمستشاره، علينا أن نفكر بطريقة أخرى للنيل من تاكفاريناس غير القتال.

لم يفهم المستشار ما يرمي إليه الحاكم، فاستفسر قائلا: هل تقصد أن نسالمه يا مولاي؟

تطلع إلى مستشاره بنظرة ملؤها الدهشة والغرابة.
وقال: نسالمهم نعم نسالمهم، وأرسل ضحكة صفراء ثم تابع، نعم نسالمهم ولكن ليس بالطريقة التي فهمتها أنت.

ثم أشار بيده إلى الجسد المدمي الممزق أمامه وقال: هل من جنودنا من يمتلك الشجاعة لفعل ذلك؟
قال: جميعنا على استعداد لصنع ذلك.

ضحك الحاكم ملء فيه، وقال ساخرا وهو يطوح بيده في الهواء: جميعنا يا سيدي، أنت تخادع أيها المستشار، فليس فينا من يصنع ذلك، إلا من كان يؤمن بشرعية موته.

كان تاسفاوت بطلا بأتم معنى الكلمة، فلم يبح بسره لأحد، لقد ابتلع الرسالة، لكن بليزوس خمن أن وجود شقيق تاكفاريناس في هذه النواحي يؤكد رغبته في الاتصال بملك الموريين الجديد، فسارع هو إلى لقائه.

دخل بليزوس إلى بلاط الملك بطليموس كما ينبغي للقادة أن يوقروا ويحترموا ملوكهم، ولم تكن تلك عادتهم في التعامل مع الملوك الموريين، لكن حراجة الموقف، التي سببها تاكفاريناس كانت تقتضي بعض اللباقة والدبلوماسية.

انحنى بليزوس أمام الملك الشاب الجديد، وكانت تلك مناسبة ليتعرف كل منهما على صاحبه وغريمه،

فعزى القائد الروماني الملك بوفاة والده وهنأه باعتلائه العرش، بينما وجد بطليموس نفسه مرغما لتهنئة الأمير الروماني على منصبه.

سأل بليزوس بأدب: هل من نصيحة تسدونها لنا يا مولاي للقضاء على هذا المتمرد الذي أزعج الامبراطور، فبلغ به سوء الأدب أن أرسل إليه يطالبه بالرحيل عن إفريقية أو.. صمت الأمير الروماني، فكان من العسير عليه أن يكمل الجملة، ولم يخف الملك بطليموس غبطته بذلك التهديد، ولكنه لم يصرح بذلك، وإنما تطلع نحو وزيره لينجده في الإجابة.

فهم الوزير الإشارة فتدخل قائلا: وماذا حضرتم لمواجهته أيها الأمير المبجل بليزوس؟

- لعلكم تعرفون أني أقود حاليا الفرقة الامبراطورية التاسعة ، وذلك يكفي كي أحتل إفريقية برمتها.

همس بطليموس في سره:» ولماذا جئت إلي إذن تطلب النصح» ثم قال بلهجة اختار فيها كلماته بعناية: سوف نبقى على موقف الملك الراحل والدنا، ولن نسمح لأي كان باجتياز حدودنا أو الاقتراب منا.. فتدخل الوزير قائلا: بالتأكيد ليست قواتكم معنية بمثل هذا التحذير فأنتم منا ونحن منكم.

لم يكن بليزوس بحاجة لهذه الإشارة، لكنها جاءت من باب الذي يخشى أن يفتضح سرا يخفيه وكان

الجميع يعرفونه، وهكذا ضمن الرومان حياد القوات الموريطانية أو على الأقل لن يقفوا مع تاكفاريناس في ثورته، وهم أكثر من يعرف شدة بأس الفرقة التاسعة الرومانية.

ضاق الخناق على تاكفاريناس فلم يجد ملجأ غير الصحراء التي يخشى الرومان الخوض فيها، فهم يعتبرونها أرضا قاحلة لا خيرِ يرتجى منها، فتوجه بجنده وفرسانه إلى قلب الصحراء، ومنها نظم جيشه مجددا، وأعده لمعركة حاسمة مع الأمير الجديد بليزوس، أما نائبه مازيبا فاستمر في غاراته على الحاميات والمستودعات والمخازن الرومانية، فيقتل ويصادر محتويات تلك المخازن، وما يعجزون عن حمله يحرقونه ولا يبقون للرومان غير الرماد.

كانت ضرباته العسكرية تستهدف القاعدة الرومانية الوسطى، مستخدما تقنية المناورة والانسحاب والمباغتة والهجوم المفاجئ وحرب العصابات المنظمة لمحاصرة الجيش الروماني وضربه في قواعده المحصنة.

وكانت مصيبة الرومان ومأزقهم أنه فتح عليهم جبهة حرب طويلة وشاقة، تمتد من طرابلس غربا حتى المحيط الأطلسي شرقا، والامتداد في مناطق الصحراء الكبرى جنوبا.

* * *

اعتلى سدة الحكم في نوميديا البروقنصل كورنيليوس دولا بيلا، وارثا البلاد من سلفه بليزوس، الذي اعتقد أنه تخلص نهائيا من خطر تاكفاريناس، وكان للحاكم الجديد وجهة نظر مختلفة حتى مع الامبراطور نفسه.

في حفل تسلم وتسليم السلطة، جلس بليزوس إلى جانب زميله اللدود كورنيليوس، فألقى الأول كلمة، ذكر فيها بخصال الحاكم الجديد، وحصافة رأي الامبراطور في اختياره، وأهاب بالقادة الجالسين في القاعة أن يتعاونوا معه لمصلحة روما العظيمة.

قال بليزوس: لقد تمكنا من سحق التمرد، وأعدنا زعيمهم إلى جحره أو إلى خم الدجاج كما سمعت بعض ضباطي يقولون.. سرت همهمات وضحكات بين الجلوس.. وأضمن لكم ألا تقوم له قيامة بعد اليوم، فقد انفض عنه معظم أتباعه ولم يتبق سوى بعض المغامرين الذين يجهلون مصلحة بلادهم، وعلى العزيز دولا بيلا أن يعلم هؤلاء النوميديين أننا هنا لتحضيرهم وتنميتهم، وتلك قضية لا تقل خطورة عن المواجهة في ساحات القتال.

لما انتهى من كلامه تعالت الصيحات مرحبة ومهللة له، وقال أحدهم: يحيا الامبراطور العظيم بليزوس،

فردد الجميع الهتاف.. أغاظ ذلك الحاكم الدولابيلا، هو يعلم أن القيصر هو من سمح بمخاطبة بليزوس بهذه الصفة، وذلك تقديرا واعترافا لأعماله الجليلة بحق القيصر.

ثم وقف كورنيليوس، وانتظر مدة حتى هدأ الحاضرون من الهتاف، وقد عدل عن الخطاب الذي أعده سابقا، فوجد لزاما عليه أن يرد على سلفه الدعي، الذي انتفش كالديك الرومي مزهوا بغروره، فأقنع سامعيه أنه تخلص من تاكفاريناس والثورة تطرق أبوابهم.

قال متمما كلام صاحبه: وإن كان تاكفاريناس قد عاد إلى قن الدجاج فسوف أخرجه منه وأنتفه أيضا، فلا تركنوا إلى الراحة والهدوء أيها القادة المحترمون، فما زال أمامنا عملا يجب أن نتمه على أكمل وجه.

خرج القائدان الخلف والسلف إلى ساحة القلعة، فهنأ بليزوس زميله وطمأنه قائلا: على الأقل سترث نوميديا هادئة، وتلك ميزة ستجعلك تتذكرني دوما.

- هل تظن ذلك أيها الأمير المبجل، لا أنكر استحقاقك للقلب امبراطور الذي خلعه عليك القيصر العظيم، لكن الخطر ما زال جاثما في كل زاوية من هذه الأرض، وطالما بقي تاكفاريناس حيا فإن الثورة لم تخمد.

شعر بليزوس بالإهانة، فأحس بالدم يصعد إلى رأسه وكاد يستشيط غضبا.. لكنه آثر أن ينتهي الوداع على خير، فكتم غيظه وقال: أرى أنك تعترف بتاكفاريناس قائدا شرعيا للنوميديين؟

ابتسم دولا بيلا بسخرية: وهل تنكر عليه ذلك؟ أرجو ألا تخاطبني وكأنك تخاطب واحدا من جنودك، جميعنا نعرف حقيقة ما حدث وما يحدث.

رغم الوقاحة الظاهرة التي صارح بها دولا بيلا زميله، غير أن بليزوس يدرك تماما أنها الصراحة الجارحة والمرة، وهو لن يسوق على زميله التبريرات التي يسوقونها على الجند، هز بليزوس رأسه موافقا: لقد رأى القيصر أن الحرب قد انتهت وأننا حققنا ما توجب علينا، وذلك هو تمثالي قائما في روما، فهلاّ أضفت لنفسك تمثالا هناك.

سارا معا مسافة طويلة، وقد التزما الصمت، فكانا يسمعان وقع أقدامهما وهما يدقان على الطريق الحجرية، فكانا يبدوان كأحمقين لفتهما صوت النقر الرتيب، ثم توقف بليزوس فجأة وقال: ليس من حقي أن أوجه لك أية نصيحة، فربما تقول في نفسك، لو نصح نفسه بها قبل أن ينصحني، لكني رجل سيف أكثر مني رجل مفاوضات وسياسة، وأعترف لك بذلك.

- وإذن؟

- لن تجد في القتال والحرب حلا، فاضرب النوميديين بعضهم ببعض، بالمال والجاه والمزارع سوف يأتونك برأس تاكفاريناس حتى لو لم تطلبه.

-قد صدقت وأوجزت، ذلك ما كنت أفكر فيه وأنوي القيام به، وتابع: لسوف أضرب قواعده، وأكافئ معارضيه، أعتقد أن علينا تغيير سياستنا تجاه هؤلاء البربر، وآمل أن ذلك سيأتي بنتائج طيبة.

كان دولابيلا عسكريا وسياسيا في نفس الوقت، وكانت حنكته وصرامته مصدر تعاسته وشقائه، فقلما اجتمعت في رجل واحد تلك الصفات، لكن ظنه هذه المرة لم يخيبه.

• • •

المسيرة السوداء

كانت قوات الثورة قد اتخذت مواقعها في سلسلة جبال الأطلس التلي وبعضها في الأطلس الصحراوي، أما تاكفاريناس نفسه فاتخذ مقرا له قرب جبال إفناين، بجاية، مرددا شعاره المفضل، الموت أو الحرية، ولن أقبل بديلا عن الحرية حتى عندما أنام في قبري، ويصرح أمام جنوده، أنه لا يخشى الرومان بقدر خشيته من الغادرين الذين يدافع عنهم.

كان الثوار يسمعون ذلك، فيؤكدون ويقسمون بآلهتهم المتعددة أنهم لن يتركوه ولن يخدعوه، فيرد مازحا: هل أصدقكم أو أصدق أربابكم، فالصادق لا يحتاج لقسم أيها الإخوة.

ثم يتابع مازحا: على كل لست أقصدكم بذلك، وإنما أولئك النائمون في بيوتهم بين أحضان نسائهم، هم الذين أخشاهم وأخافهم.

ورغم ذلك كان بعض الثوار يخدعونه ولا يجدون حرجا في الوشاية به.

وقد اعترف لمازيبا أنه خسر كثيرا من الثوار بسبب إجـراءات بليزوس، ولكنني غير آسف عليهم، قد تخلصنا منهم، فاستفسره مازيبا عن السبب، وكانا يسيران معا بين غابات الأوراس، فقال: الذين غادرونا طمعا بما عند الرومان، كانوا سيبيعون الثورة في أي فرصة تسنح لهم، فلنحمد الإله أننا تخلصنا منهم دون أدنى ضرر.

قال مازيبا: لكن ذلك سوف يؤثر على مهابتنا بين السكان، ولا أظن أن الرومان سيتركونهم يعودون دون أن يقدموا لهم خدمات تضر بنا كثيرا.

وماذا سيفعلون برأيك..هل سينضمون إلى الجيش الروماني؟ فليفعلوا قال تاكفاريناس، هم يطاردون الغنائم ونحن نطارد الحرية ذلك هو الفرق بيننا وبينهم.

قال مازيبا: حتى بطليموس أبدى سعادته لقتالنا، وهذا يحتم علينا أن نعيد ترتيب قواتنا من جديد، فلا يمكننا الاعتماد على العناصر الضعيفة والمتهاونة.

- وهل كنت تنتظر من ابن يوبا أن ينصرنا، أو أن يكف يده عنا، ثم إنني أضع كل ثقتي في الجيتوليين، فلن يخذلنا.أهل الصحراء أبدا، لقد عرفتهم جيدا. أتدري. لو امتلكت ما يكفي من الوقت لأرسلت رجالي إلى الصحراء ليتدربوا على حياة الفروسية ويتعلموا معنى النقاء والحرية، والآن... قال وهو يأخذ نفسا

عميقا، أرى من الحصافة والحكمة أن نتوجه نحو الجنوب الشرقي، فقد حصد المزارعون محاصيلهم، ولن أسمح لحبة قمح واحدة في الذهاب إلى روما.

وافق مازيبا قائده على ذلك، خاصة بعد عودة بليزوس إلى بلاده وسحب الفرقة التاسعة سيئة الصيت، فقد وصلتهم الأخبار عن ثورة القبائل السلافية والجرمانية في أوروبا الشرقية، فقد أصبحت أخبار الإمبراطورية هاجسه وهمه الوحيد، خاصة بعد فقدانه زوجته في هجوم روماني قاده تاسيوس على إحدى مواقعه الحصينة، وقد أرشد الرومان إليهم أحد الجنود المتساقطين من جيشه.

أسر تاكفاريناس لنائبه مرة: رغم كل الضرر الذي سببه لنا الوشاة والخونة من قومنا غير أني أشفق عليهم كثيرا.

-وما الذي يدفعك لذلك؟

-بعد الذي رأيته من قسوة الرومان، لا يمكنني إلا أن أجد لهم الأعذار، هم يصنعون ذلك لدفع الضرر عنهم، من يدري كم قاسوا وعانوا.

هز مازيبا رأسه غير، فتدخل العم حاديم وكان غير بعيد: من يرفض القمع والاستغلال والتفرقة والاحتلال، عليه أن يقاوم ويثور لا أن يبيع إخوته وأحبته للظالم.

رد تاكفاريناس بصوت مرتفع: لكن يا عماه ليست اليد التي تصفع كالوجه الذي يتلقى الصفعات، من يشاهد ويشفق ليس كمن يعاني ويتألم.

شعر حاديم بالغضب وبعض الإهانة فهب واقفا، وكان يعبث في الأرض بعصا كانت بيده.. اقترب منهما قائلا: وهل كنا نشاهد فقط أم ضربونا حتى أتخمنا من القهر؟

التزم تاكفاريناس الصمت، فتابع حاديم، ليس لمثل هؤلاء الأغبياء الوشاة إلا الحرق.

قال مازيبا محاولا تغيير وجهة الحديث: إذن سنفترق بالقرب من حصن أوزيبا، لقد غلت أيدينا كتائب بليزوس.

كانت القوات الرومانية همجية حقا، في قسوتها وشراستها وتعطشها للقتل، وتعوزهم المشروعية، لقد كانوا محتلين وتلك صفة تكفيهم.

خط بليزوس رسالة لصديقه أقر فيها بوحشيته، قال فيها، كل ما أخشاه عندما أعود إلى روما منتصرا بالتأكيد ألا أتمكن من النوم لكثرة ما شاهدت من القتلى..أقصد الذين حصدت رؤوسهم بسيفي..هم يقولون حسب طبيبنا تاديوس، إن الأعمال العنيفة لا تشعر بقسوتها ومرارتها إلا في أوقات الهدوء والراحة.

وإن سألتني هل أنا نادم على ذلك؟ سوف أجيبك بكل طمأنينة بالتأكيد لا، لقد خلقنا للقتال، وللأسف لا نجيد مهنة غيرها.

رد عليه صديقه العجوز صاحب الخدود الحمراء:» ليحفظك جوبيتر ويرعاك، كن على ثقة بأن كل هؤلاء البربر الذين قتلتهم سوف يكونون خداما لك في العالم الآخر، وسوف يشكرونك على ذلك، فليس من السهل أن ينال أحدهم شرف الموت بسيفك، إني أغبطك على ما أنت فيه من نعمة.

حدث ذات مرة أن اقترب تاكفاريناس بقواته من الساحل، وكان يرغب في السير نحو مدينة إيكوسيم، الجزائر، وكان جيشه محملا بالغنائم، أعاقت الأحمال حركتهم، والحق كما كان ينصح مازيبا: إن الغنائم والاستئثار بها سوف تكون سببا لهلكتنا وهزيمتنا، وكان قائده يعارضه بحجة توزيعها على الفقراء والمحتاجين، وأيضا على الجند وعائلاتهم.

رد مازيبا: لكن جندنا لا يفكرون مثلنا، هم يحاربون من أجلها فقط.

- ليسوا جميعهم على أية حال.. ليسوا جميعهم، تابع مبتسما.

سلكت قوات تاكفاريناس طريقا مختصرا، ولسوء الحظ وجدوا أنفسهم بالقرب من حامية رومانية،

فتعقبهم قائد المعسكر بفرسانه، اضطر جيش الثوار للتخلي عن كثير من الغنائم، وطاردهم الرومان حتى حدود الصحراء، ولولا تنبه الجيتوليين، لتمكن الرومان من تحقيق نصر حاسم.

حتى ابن تاكفاريناس الشاب الصغير تافات استغرب ذلك، لكن والده نهره باعتباره لا يفقه بالتنظيم والاعداد شيئا.

سمع العم حاديم ذلك فقال مؤيدا: أخشى يا ابن أخي إن تافات على حق، يبدو أنك لا تعلم وتشاهد ما يصنعه أولئك الجند في مخازنهم، لقد نبتت كروشهم، فهل تعول على مثل هؤلاء للقتال.

تجاهل تاكفاريناس النصح معتقدا أنه هو من باتت روما تخشاه وليس عليه أن يخافها بعد انقضاء أكثر من ست سنوات على ثورته، لقد كان الفارس النوميدي الصغير على حق، فقد اضطر تاكفاريناس لتغيير استراتيجيته، وتلك كانت غلطة جسيمة مكنت الرومان من اصطياد الثوار في أكثر من مناسبة.

ذهب بليزوس إذن كما يقول منتصرا، فكيف سيكون خلفه؟

ذهب الشيطان فاعتقدنا أن الشر قد زال، فجاء من ورائه معلمه، تلك هي المعادلة التي غابت عن ذهن تاكفاريناس، الذي ظن أن عودة بليزوس إلى بلاده

ستمكنه من رقبة الحاكم الجديد دولابيلا، فأخذ يحضر للهجوم على سيرتا نفسها.. نقل قواته من جبال الأوراس نحو شولو وميلاف وأخذ يغذ السير إلى الجنوب الغربي نحو منطقة أدمدياس، المدية، وتقع هذه ضمن حدود موريطانيا، فقد اتفق أن يلتقي قوات بارباس الذين تقدموا نحو خط الليمس، فتمكنوا من سحق كثير من الحاميات الرومانية، ودمروا الحصون والقلاع والضياع، ولم تكن تلك التطورات قد بلغت تاكفاريناس، في حين كان بارباس يحث فرسانه على السرعة والثبات قائلا: لقد انتهى عهد الصبر والغزوات.

سار جيش الثوار غربا، وكل همه الوصول إلى جبال رابيديوم وتنارموزا ثم الانطلاق عبر الجبال إلى مدينة سيرتا، وقد وضع في اعتباره الالتقاء بقوات بارباس القادمة من الصحراء، ولأن عدد أفراد جيشه كبير، اتفق مع قائد الجند على أن يتقدمهم مع فرقة من الفرسان، ذات الأحمال الخفيفة، على أن يلحقوا به بأسرع ما يمكنهم.

انطلق الثائر متلفعا بعباءته الحمراء، مساء يوم ربيعي من عام 20 م، صحبة مئة وخمسين فارسا، تولى عمه حاديم مساعدته في القيادة، بينما تولى ابنه أمر حراسته وخدمته، وكان لانطلاقتهم السريعة تلك مخافة ومهابة، من يراهم يعتقد أنهم إحدى فرق الجن السارحة ليلا، ولم يثقلوا أنفسهم بالأحمال، بل اكتفوا بعباءاتهم

ودثارهم وبعض الخيم الخفيفة، ورغم بعد المسافة من جبال زاما.. قرب سطيف.. إلى أوزيا، سور الغزلان، فقد تمكن من قطعها بزمن قياسي، حتى إنهم لم يتوقفوا لنيل قسط من الراحة إلا مرة واحدة، لقد اقترب موعد الحسم مع الرومان.

كان دولا بيلا أكثر الغاضبين مما يجري، فقال لمستشاره أوغستينو: أتوجس شرا مما يجري، لست مطمئنا لزحف القبائل البدوية نحو حدودنا، شاطره مستشاره ذلك القلق مؤكدا، الغلط الكبير الذي وقعت فيه حكومة الامبراطورية بسحب أهم قواتها من إفريقية.

قال أوغستينو: لا أريد أن أزيد من قلقك، لكني أشعر أن هؤلاء البربر يحضرون لحرب شاملة ضدنا.

ضرب دولا بيلا الطاولة بعصاه وقال: هذا ما أسميه غباء القوة والتصرف الأحمق، وكل ذلك بسبب الامبراطور المزيف بليزوس، صمت قليلا وكأنه يختار الكلمة المناسبة ثم تابع، لقد نصبوا له تمثالا، أولئك الحمقى الذين لا يرون النار تحت الرماد.

-أتعرف أوغستينو. مذ تربع تيبريوس على عرش روما لم نر الخير، أية حماقة ابتلينا بها؟ وأخذ يردد كلاما لم يفقه منه المستشار كثيرا، يقولون إن لعنة تطارد روما بسبب نبي خرج في المشرق تعرض للأذى بسببنا. هل تصدق ذلك أوغستينو؟

ابتسم أوغستينو للملاحظة، هو يعلم أن حاكمه يقول الحق، فقد وصلت النصرانية إلى روما، رغم البطش الذي لقيه أتباعها، لكن أوغستينو يعرف قدر نفسه، ليس بمقدوره النيل من القيصر أمام أحد أهم رجالاته، لكن منزلة بليزوس كانت أهم منه بكثير.

انتظر دولا بيلا أن يسمع تعليقا، لكن أوغستينو أطبق فمه، فقال الحاكم: هل تعتقد أن إجراءاتنا العسكرية تكفي لإحباط أي هجوم جديد؟

- كلما تساهلنا وتسامحنا مع هؤلاء البربر، يمكننا الحد من خطرهم، بل وسوف يقفون معنا، ويكونون عونا لنا على أبناء جلدتهم.

ثم قال وهو يتصنع الحكمة: إن للمال رائحة تنسي الناس همومهم، إن له تأثيرا يفوق كتيبة من الفرسان.

إذن ابذلوا المال واشتروا الذمم، قال دولا بيلا بانفعال، نادوا في الأسواق والطرقات أن حكومتنا سوف تجزل العطاء لكل متمرد تائب، اكتبوا أننا قررنا توزيع الأراضي على البربر الذين ينحنون لروما، وسوف نمنح لكل بربري عشرين دينارا ذهبيا مقابل كل متمرد.

• • •

نهاية ثورة.. بداية نبي

استيقظ النوميديون الماسيليون البسطاء على صوت قرع الطبول، ومن كان في مزرعته أو محله انتبه لصوت المزامير والطبول، التي صاحبها الاعلان عن تلك القرارات.

كان المنادون يسيرون في الأسواق، وهم يبشرون الناس بقرارات حاكمهم الجديد، وانتقل خبر الاجراءات الجديدة كالنار في الهشيم، فسال لها لعاب صغار الأنفس، وطمع غيرهم بعودة أبنائهم من القتال للعمل والراحة.

كطائر الشؤم الذي يخشاه السكان، من الفلاحين الذين يعملون في المزارع الرومانية، سارع نفر من الأمازيغ الذين عصفت بلبهم المغريات إلى أقرب حامية رومانية، فدخلوها وهم يلهثون من الانفعال والطمع، وكأن كل واحد منهم يرغب أن تكون العطايا والهبات من نصيبه.

قال أكبرهم، إنه شاهد بعيني رأسه فرقة من الثوار

يقودها «الزعيم» تاكفاريناس نفسه، هكذا وصفه، وهي تتجه نحو الغابات السوداء، ثم أقسم، إنه تاكفاريناس ولا أحد غيره، أقسم بالربة إيفري إنه هو، ثم تطلع ببله إلى الضابط الروماني، وكأنه ينتظر الإفلات من حكم بالموت.

ربت الضابط على كتف العجوز، ثم سأل بقية الرجال، فأكدوا كلام صاحبهم، قال الضابط: لن تنسى روما خدمتكم، بل ستصبحون من الرومان الأشراف.

سعد هؤلاء بالمديح، سجلوا أسماءهم ومعلوماتهم، وطلب منهم البقاء في الحامية.

طار خبر فرقة الثوار إلى جميع حاميات المنطقة ومدنها، وحملت الخبر في لفافة صغيرة حمامة بلهاء أرسلها الرومان إلى قائدهم دولا بيلا، فدخل الجميع في سباق مع الوقت، تاكفاريناس المتلهف إلى لقاء زعيم الجيتوليين ليقود الجيش بعدها نحو سيرتا، والرومان الذين دخلوا في مطاردة عنيفة لقطع الصلة بين تاكفاريناس وقواته، وعزله أيضا عن الجيش القادم من الجنوب.

وصلت فرقة الثوار إلى القلعة المهدمة قبل طلوع الفجر، وقد أعياهم التعب والجهد والمشقة، فتناولوا بعض الطعام ثم نصبوا خيامهم، وهم على ثقة بمناعة موقعهم الذي تحيط به الغابات الهائلة، ثم ذهبوا في نوم

عميق، ونام بعض الحراس الذين تولوا مهمة الصحو ريثما يرتاح الباقين، لكن التعب سحق جميع الأعين، دون أن يحتاطوا لما ينتظرهم من شرور، كانت بضعة ساعات من النوم والراحة تكفيهم ليتابعوا مسيرتهم نحو الجنوب.

لكن سرايا الفرسان الرومانية كانت أسرع من الوقت نفسه، وتدعمها كتائب المشاة الخفيفة التي انطلقت بأقصى سرعتها، ومع خيوط الفجر الأولى، لم تنهض الطيور من أوكارها لتتلو تسابيحها المعتادة، وإنما جفلت وارتبكت وفرت من أعشاشها، لسماعها حوافر الخيل وهي تدق الأرض الصخرية المهترئة، فقد كان الهجوم الروماني عنيفا وشرسا ومباغتا، وكانت الأوامر التي يحملونها أكثر شراسة وعنفا، اقبضوا على تاكفاريناس ثم شدوا وثاقه، نريده حيا يعني حيا، أما عن البقية فلا بأس من تقتيلهم وتمزيقهم، وكان الثوار ساعتها بين اليقظة والمنام، حتى أن تاكفاريناس نفسه ظن أنه يحلم بالحرب الموعودة، لكن هتافات الفرسان الرومان كانت تصم الأذان، وهي مصحوبة بأبواق النفير الحربي، وعندما انتبه القوم من غفلتهم، نهضوا مذعورين مأخوذين بالمفاجأة، فلم يعرف الواحد منهم أين يذهب وكيف يتجه فقد تجاوزهم الزمن.

وقع ابن تاكفاريناس بيد الرومان، فشدوا وثاقه وسحلوه أرضا إلى حيث يقف قائدهم، أما عمه حاديم

فقتل شر قتلة، فلقد أبى الاستسلام والإذعان للجند الذين أحاطوا به، فامتشق سيفه وحاول جاهدا أن يفتح طريقا له نحو الغابة، لكن الفرسان والمشاة تكاثروا عليه فنهبته سيوفهم ورماحهم نهبا، حتى اختلط جسده الممزق بذلك التراب الذي أحبه وعشقه.

أدرك تاكفاريناس الذي لم تهزه المفاجأة، أنه وقع ضحية الغدر والمكيدة، وكان على ثقة أن الذين صنعوا ذلك هم أتباع بطليموس الموري، لأنه كان على أرضهم وفي مناطقهم، إذن هي الهزيمة القاتلة، الرومان أولا مع يوبا الثاني ثم خليفته بطليموس والسفلة من الأمازيغ، لقد طعن الثائر في الظهر، وذلك حال يوغرطة وعرابيون، عرفه الرومان من عباءته الحمراء ووشاح الرأس الأسود، هو الفارس الأحمر الذي كانت نوميديا تتحدث عنه.

أفلح تاكفاريناس في الإفلات من الجند المحيطين به، وانطلق نحو مجاهل الغابة، لكن صوت ابنه الأسير الجريح المستغيث كان يناديه، ويتوسل إليه ألا يتركه بينهم، صرخ الشاب اليافع: أبي إنني هنا..أبي أين أنت، شعر الرجل ببركان عظيم يغلي في قلبه وفي رأسه وأذنيه، لقد زلزلته كلمة أبي، فهل يترك بعضا منه للرومان ويفر، هل يتنازل لهم عن تاكفاريناس الصغير، تلك كانت بعض أفكار جالت في رأسه وهو يتجه صوب الغابة.

حزم الثائر أمره، واتخذ قراره، فإن كان لا بد من الموت فليقتل وسط جنده وعائلته، ففي المحصلة لا أحد يفضل صاحبه، وفي النهاية فإنه فقد كل أحبته، وحتى لو تمكن من الإفلات والفرار، فمع وجود الخونة والمتساقطين لا شيء يستحق المحاولة للبقاء، وقد فقدت المعركة لذتها ونشوتها، إنه يقاتل من أجلهم وتحمل المرارة والعذاب والترحال، لكي يصنع لهم مجدا وتاجا اسمه الحرية، تبا لكم ما أتعسكم وما أجبنكم.

تلك كانت آخر كلماته وهواجسه، وقد يقع معظم الرجال في الأسر، أو يغلبوا فيستسلمون، إلا هو يظل الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة، لم يضع في حسبانه منذ أعلن ثورته أن يقع في الأسر أبدا، فهو يعي تماما معنى أن يساق مهانا ذليلا إلى روما، سوف يجعلونه في أحد مسارحهم لكي يتمتع برؤيته قيصرهم الكئيب، ألم يقل أوغسطسهم قبل سنوات، يا لروما المسكينة التي سوف يحكمها هذا الرجل الكئيب، فكيف يسمح لمثل هذا القيصر بالتشفي فيه.

انطلق تاكفاريناس عائدا إلى حيث الصوت، أبي، وقد عض وشاحه بين أسنانه، واستل سيفه غير عابئ بما سيكون بعدها، وتدافع الرومان نحوه من كل صوب، وكل واحد منهم يمني نفسه بالقبض عليه وأسره، فتناول أحدهم بسيفه وتناول الآخر والآخر والرابع،

كانوا يريدونه حيا، هكذا أمر دولا بيلا، ليثبت للقيصر وصديقه بليزوس أن ثورة تاكفاريناس انتهت بيده، وأنه الوحيد الذي كان محقا بينهم، وأنه الوحيد الذي يستحق تمثالا مخلدا في ساحات روما، بدل التماثيل الثلاثة التي حاربت ولم تقطف نصرا.

شعر الثائر للحظات أن عضده وقبضة يده التحمتا بمقبض سيفه، فكانت يده هي السيف، فأنى لهم أن يأسروه وأن يكبلوه كما كانوا يتمنون ويشتهون.

كان يندفع نحو سهام الرومان، وكأنه أقسم ألا يترك سهما واحدا يذهب في الفراغ، فتصدى للطعان بصدر عار، مفضلا الموت على أن يكون أسيرا يستجدي قطرة ماء.

لقد تحاشى الرومان قتله، فقتلهم وأكثر فيهم القتل، حاولوا جهدهم أن يأسروه، كانوا يتلذذون بأسر الرافضين لسطوتهم، وقد أقسم قائدهم أن يكبله بالقيود ليجعل منه عبرة، لكنه لم ير سهما إلا وانطلق نحوه لينغرز في صدره، وكأنه يقول لهم سوف أهزمكم حتى في موتي، وكان يردد بصوت مبحوح، أنا من يحدد كيف ومتى يموت وليست روما من تكتب نهايتي، كانت صفعة وغصة على وجه وفي حلق دولابيلا.

لما اجتمع حوله الشيوخ مهنئين، كان يرسم ابتسامة صفراء تفوح بالسخرية المرة، وعندما سألته زوجته

عن سر كآبته قال: لقد سئمت منظر الدماء، غير أنها لم تصدقه أبدا فقالت بدلال وهي تكشف عن كتفها وبعضا من نهدها، هل سئمت منظر دماء الرجال واستطبت عضي، ثم أطلقت ضحكة خليعة ماجنة وهي تقول: أعتقد أنك تراني صاحبة دم عسلي.. يا لك من دبور أعشق عضاته.

كان ساعتها يحضنها بقوة ويضمها عارية إلى صدره، ويبالغ في ضمها حتى يسمع صوت أناتها ومحاولتها الفكاك قليلا من ساعديه، ولم يكن يصنع ذلك شبقا لضمها وإنما يريد أن يمحو شيئا علق في عقله وسكن في زوايا قلبه..

نعم لم يشعر بلذة الانتصار، هو الذي يعرف ذلك، وكلما خلا مع نفسه، يردد هامسا، وقد اقشعر بدنه، وشعر بتوتر عنيف في معدته أصيب بعدها بالقرحة، لقد هزمني هذا البربري حتى في موته.

قتل تاكفاريناس هنا، وهناك ولد وشب عيسى بن مريم المسيح النبي الموعود، وما يجمع بين الرجلين أكبر بكثير من المسافة التي تفصل بينهما، كانا دعاة حق وعدالة ومساواة، ما يعني أن على الجدات مهمة صعبة، عليهن أن يروين قصته لأحفادهن في ليالي الشتاء الحزينة، ويغنين له وهن يعجن خبزهن، وعند الحصاد كل حصاد، على الشباب أن يشكروا الرب لأنه بعث

فيهم رجلا اسمه تاكفاريناس، وعلى الرجال المسنين أن يتذكروه دوما عندما يتحدثون في سير الأبطال.

❁ ❁ ❁

فهرس



الثائر
تاكفاريناس

لم يكن الرجل سليل الملوك، وإن انتمى إليهم، شاهد الظلم والقهر والاستلاب والمصادرة، فتمرد على أقدار قومه، ومن أجلهم، فصنع ثورة لكل الأمازيغ الذين ظلوا يشكون به حتى النهاية، آمن مع صديقه الموريتاني بأن الحرية لا توهب، وإن خلقنا أحرار، فقاتل الرومان وتغلب عليهم، لكن كيف إن جاءته الطعنة ممن يدافع عنهم، يا لقسوة الأهل عندما يبيعونك بالرخيص.





الثمن 200 دج

elwatan.elyoum@gmail.com

Cover designed by: hakim@infografe.com

منشوراتنا على الموقع : www.souqeleulma.com